بسم الله الرحمن الرحيم

حُـــلْمُ الكَـــنزِ

و

القَمـــر

روايـــة

لـ.... علي كامل

Tweeta

للنشر و التوزيع

#غرّد_للعالم

رئيس مجلس الإدارة

م/ أحمد عبد العزيز

المدير العام

أ/ رشا العمري

الطبعة الأولى

2019

حُـلْمُ الكَـنزِ و القَمـر

رواية

تأليف: على كامل

تصميم الغلاف:مصطفى فكري

التنسيق والإخراج الداخلي: شادى راغب

مراجعة لغوية: أميرة محسن

رقم الإيداع: 19775 / 2018

الترقيم الدولي: 9-22-6639-977-978

دار تويتة للنشر والتوزيع

٧شارع محمد أبو العطا- محطة العريش- فيصل- الجيزة

هاتف: ٠١٠١٧٧٩٩٧٩٩ / ٠١٢٢٥٧٦٢٠٦٦

البريدالإلكتروني:

tweetpublishing2017@gmail.com

الموقع الرسمي:

www.facebook.com/Tweetforpublish

- جميع الحقوق محفوظة للمؤلف وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة سواء ورقية أو الكترونية سيعرضك للمسائلة القانونية.
- هذه النسخة للقراءة الشخصية فقط ولا يجوز إعادة طباعتها أو نشرها إلا بعد حصول على إذن كتابي من المؤلف.

الرواية الفائزة بجائزة إحسان عبد القدوس للرواية ٢٠١٧

إهداء ..

إلى من علمني معنى الحق والعدل والحب وصعدت روحه الطاهرة إلى ربه في سكون، أبي العزيز ، وإلى تلك المرأة التي تسكب حبها لي سلسبيلا لا ينضب، أمي يرعاها الله، وإلى رفيقة الدرب وحبيبة القلب زوجتي الغالية، وإلى بريق الأمل المتجدد، وقرة عيني وأقماري الثلاثة آية، وأميرة، ورودي، وإلى كل الباحثين عن الحق والعدل في هذا العالم.

تقديم:

الحياة ... هذه التجربة التي منحها الله لكل خلقه، هي سر وجودهم، وهي محل صراعهم، وهي غاية كل الكائنات، الكل يريدها، لا يرغب في فراقها، يتلذذ بها، ويتنعم بوجودها، حتى لو عاشها شقياً بائساً لا يمتلك فيها ما يوصف به بأنه من الأحياء.

والكل يعلم أنه سيتركها مجبراً، وسيغادرها كارهاً، ولكن تظل القلوب معلّقة بها، شغوفة بوجودها، سابحة في أماني الخلود والبقاء الأزلي الذي خلق الصراع بين عشّاقها، أو حتى الزاهدين فيها. وهذا الصراع على امتلاك مباهجها هو سبب الغدر، والقتل، والخيانة، وانعدام الضمير، وفساد الذمم، والعداوة بين بني الإنسان... فيصبح الإنسان أحد أثنين جانياً أو مجنياً عليه..!!

وقد يظن الجاني أنه سينجو بجنايته، ويتناسى أن من خلق الكون قد جعل له موازين تحميه، وتحفظ له اتزانه، وأهم هذه الموازين هو العدل الإلهي، الذي مكّن به أصحاب الحقوق من نيل حقوقهم، وأوقع به المعتدين في شر أعمالهم، ومنح الأمل للمظلومين بالقصاص من ظالميهم. وواقع هذه الحياة هو مزيج من الحقائق والأوهام، وهذه الأوهام هي أمانينا فيها أو مخاوفنا منها، والتي تتحول إلى أحلام تراودنا، وربما تكون إرهاصات لواقع لم نعشه بعد..!!

فعندما نسمع عن واقع بدأ بحُلم، وارتباط حياة إنسان ما أو جماعة من الناس بهذا الحُلم نظن أننا أمام أسطورة من الأساطير، أو حكاية دينية جاءت في

طيات كتاب مقدّس. ولكن عندما يصبح الواقع ذاته عبارة عن حلم طويل، ونشعر أننا عشنا هذا الواقع من قبل في الخيال أو ربما في الحقيقة، بحيث تصبح كل الأفعال مجرد صورة لما كان وربما لما سيكون؛ فقد تتغير نظرتنا لتلك الأحلام. إننا يمكن أن نرى الأحداث قبل نشوئها، ولكن هل يمكن أن نهرب منها؟! إننا لا نملك هذا الخيار، فنحن نندفع نحوها حسب ما قدّر الخالق (سبحانه وتعالى) لنا. فكل ما نملكه الاستسلام والرضوخ لإرادة القدر..!!

وتبدأ الحكاية.....

لقد كان الفزع ينتابه، والخوف يتملّكه كلما تذكر ذلك الحلم الذي يلازمه منذ الصغر، فهو يخشى الليل والقمر معًا، يبحث عن مبرر لهذا القلق والرعب اللذين يسريان في عروقه بينما يقترب القمر من الاكتمال!، وعندما يتوهج نور البدر في السماء تتملكه حالة المهابة من شيء مضى أو من شيء آت، لا يعرف ما هو في الحالتين؟! فهذا الشاب اليتيم الذي لا يعرف عن أهله شيئاً وعى على الدنيا كنبتة في الصحراء بلا جذور تقوي تمسكها بتربتها أو شجرة كبيرة تستند عليها أو فسائل صغيرة تشعرها بأنها ليست وحيدة، فلم يجد سوى إلا تلك المرأة الباكية التي ترتسم عبراتها كل ليلة على وجهها المضيء بحمرة البكاء. إنها أمه التي ليس له في الدنيا سواها، وكلّما سألها من أين جاءت هي وأبوه؟ ترفض الإجابة، وتتجمع كل أحزان العالم في عينيها، ويظللها الألم و تخالط ملامحها الدقيقة الحسرة، وتغمرهما سحب الدموع؛ لتحجب الكلام فيخرج متقطعاً خلف نبرات الأسى والشعور باللوعة على الزوج الغائب منذ زمن..!!

فهي مجبرة على أن تخبره أن والده مات وهو في الثانية من عمره. ولكنها لا يمكن أن تؤكد له ذلك. ولم يعد يصدّق كلامها؛ فالطفل لم يعد طفلاً، لم يعد يقنع بما تلقيه عليه من كذب تحاول إخفاءه بتلك الدموع المنهمرة كلما ألحَّ عليها، لقد أصبح شاباً يسأل: مَن يكون أبوه؟ وأين هو؟ وماذا كانت مهنته أو صنعته؟ وإذا كان قد مات فأين قبره؟! وهل يوجد ميت بلا قبر؟! ثم أين

عائلته وعائلة أبيه؟ هل نبت هكذا كالنبت الشيطاني بلا جذور؟! تعجز الأم عن الإجابة، فكلام الابن رصاصات تقطّع كبدها. وهو لا يرحمها. يصرخ:

- من أنا ؟ من أهلي؟ وأين موطني؟

تجيبه بصوت متقطع وحروف امتزجت بالحزن والدموع:

- يا بُني، يا حبيبي، أنا أهلك، وهنا موطنك، قد ولدتك هنا، وهنا كان أبوك.

يدير وجهه عنها يخبط كلتا كفيه على الجدران المتهالكة ويصيح:

- أنت لا تعلمين شيئاً، نظرات الناس تقتلني، وأسئلتهم تذبحني، وأنا لا استطيع أن أردّ، أخبريني يا أمي، من أنا؟ وهل حقاً بلا أصل وبلا فصل؟!

يكرر أسئلته، ودموعه تتوالى، والأم تستعطفه:

- ارحمني يا حبيبي، قلبي يفيض وجعاً، وأنت قلبي يا ولدي.

ولكنه ما زال يسأل، ويصرخ، ثم يسأل ويصرخ، ثم يُلقي بنفسه في حِجرها، ويبكي بكاءً حاراً كحرارة الأرض في شهر أغسطس، على هذا الطريق الرملي المعفر بالتراب الذي يقع عليه منزلهم المتواضع، في أطراف هذا النجع المنسي في صعيد مصر، ثم ينام وكأنه يهرب من واقعه إلى عالم الأحلام المفزعة.

خلق كثيرون يتجمعون في مكان واسع وأعلام بها ثلاثة ألوان تتوسطها نجمتان، وحاجب يقف ممسكاً بورق كثير، ومِنجل ملطّخ بالدم معلق فوق المنصة، وأصوات تنادي:

- اقتلوه...!!

وأخرى تصرخ :

- أفرجوا عنه، أخرجوه ، لقد فعل ما كان يحلم به كل فرد فينا..!

أما هو ففي قفص حديدي يقف خائفاً يترقب فهو لا يعرف مَن هؤلاء؟ ولماذا أتوا به إلى هنا؟ تلك الوجوه الغريبة لا يعرف منها إلا تلك الفتاة الواقفة بالقرب من منصة تشرف على هؤلاء البشر المتجمعين في هذا المكان الذي يملؤه الغبار المختلط ببصيص من الضوء لا يعلم مصدره، وبينما تحاول أمه الاقتراب يمنعها الجنود، يصيح في وجهها أحدهم:

- تراجعي يا سيدتي لا تقتربي من هذا السياج ..!

فيسحبها الشيخ ذو اللحية المشيبة من يدها عندما يلاحظ لوعتها وفزعها، ويذهب بها قريباً من تلك المنصة فتجلس على الأرض بجوار الفتاة الواقفة.

يضرب أحد الجنود على قرص نحاسي ضربة مفزعة، وينادي الحاجب بصوت مجلجل:

- محكمة...!

نظراته المشتتة تتجه نحو القاضي الجالس وسط هذا الضباب على كرسيه فوق المنصة ويسمع صوته:

- أنت متهم بقتل الذئب الأحمر، فما قولك؟

يصرخ وفي صوته ملامح الفزع :

- أنا، أنا برئ أنا.. !!

القاضي مقاطعاً:

- أنت كاذب!، لقد شاهدك كل سكان القرية وأنت تقطع رأسه بمنجلك، اعترف.

يحاول أن ينفي تلك التهمة عن نفسه فيخرج صوته مبحوحا:

- أنا...

يختفي صوته فجأة بين الأصوات المتعالية من كل الموجودين بعضهم يصرخ: اقتلوه..! والآخرون: أفرجوا عنه.

يمسك القاضي بالمطرقة ويدق دقتين تسكتان كل الحضور، ثم يقول:

- حكمت المحكمة .....

وإذا بصوت آت من بعيد:

- انتظر أيها القاضي، لقد استمعتم لكل شهود الإثبات، والآن لقد جاء شاهد النفي الوحيد إنه هنا.

زاغت أبصار الحضور في أرجاء المكان، والقاضي ينظر يمينا وشمالاً ويسأل:

- من هو هذا الشاهد؟ وأين هو ؟

الصوت:

- ها هو، إنه القمر اكتمل الآن، وجاء ليدلي بشهادته.

يستيقظ فزعاً...إنه القمر... إنه القمر .

نفس الحلم يتكرر. إنه نفس الحلم لا يرغب في مفارقته منذ طفولته.

.....

الفصل الأول

هنا الجذور، مدينة (الواسطى) المركز الأول من مراكز محافظة (بني سويف) من جهة الشمال عقب ثورة يوليو١٩٥٢، حيث كانت شوارع المدينة مكتظة بالناس في يوم السبت حيث السوق الأسبوعي الكبير بهذا المركز القريب من العاصمة الكبيرة، الغبار يطغى على الهواء في هذا الوقت المُبكر، حيث تتدافع السخونة والحر ساعة بعد أخرى مما يزيد الإحساس بالضيق، كانت الشمس تتقارب من الرءوس في هذا الوقت من العام، و بشائر الصيف تغلف جو الربيع الحار في مصر.

كانت رائحة اللحم المطبوخ، والسمك المشوي تنتشر في أرجاء الحي المقابل لمحطة السكك الحديدية، حيث تنتشر المطاعم التي كانت تقدم للزبائن منذ الصباح اللحم والخضار والأرز والأسماك النيلية بمختلف أنواعها بأسعار مناسبة لظروف المدينة، التي تشبه بشكل كبير القرى الكبيرة في صعيد مصر، وكان زوار المدينة يتزايدون يومًا بعد يوم فقد أضحت الواسطى مركزاً للتجارة في شمال الصعيد.

شارع سعد زغلول الممتد من المحطة والمنتهي عند شاطئ النيل يموج بالناس من مختلف القرى والبلاد المجاورة. يقاوم المارون حرارة الجو وموجات الغبار على الطريق المُترب بابتسامتهم الريفية الصافية، مع رغبتهم في الاستمتاع بهذه اللحظات حيث تعلو الضحكات من هنا وهناك، وتتزاحم أصوات الخلاخيل التي تزين كعوب الفتيات والسيدات مع أصوات الباعة

المنادين على بضائعهم، وأصوات التفاوض والفصال بين الباعة والمشترين. وكعادة الرجال في كل عصر يتابعون المارات بعيونهم وقلوبهم في رغبات تخفيها عقيدتهم الريفية المتمسكة بالتقاليد والعادات.

الرجال بملابسهم الريفية البسيطة وبعض الأفندية من الموظفين يتجمعون عند بائع البليلة الذي اتخذ من الطريق محلاً لممارسه عمله. كانت الرائحة المنبعثة مع البخار المتصاعد من القِدر حيث القمح والماء، تبعث في النفوس رغبة ملحة إلى تجربة طبق بليلة بالزبد والعسل. بالقرب منه مدخل مؤسسة التموين التي تنبعث منها رائحة الزيت العطن. وبجواره سيدة سمراء تجلس على الرصيف تفترش خرقة ممزقة، تبيع التوت الأحمر والأسود الكوب بتعريفة(نصف قرش)، وبائع العرق سوس يحمل جرته الكبيرة على ظهره، ويرن صوت الصاجات بين أصابعه وينادي: "اشرب يا عطشان عرق السوس المثلج العال". ويصب لمن يرغب منهم كوباً بمليمين.

تختلط الأصوات والخيالات والأقدام في الشارع الواسع. فهذا حمّال يحمل على رأسه أحمال الناس الذين يدفعون له بضعة ملاليم لا تكفي لإطعام أطفاله الجائعين. وهموماً أكبر في قلبه، لقد أبهرته كلمات قادة يوليو، وظن أن أيامه التي ضاعت تحت وطأة الحاجة قد اندثرت بلا رجعه، واستعد ليجني ثمار ما سمع عنه:"ارفع رأسك يا أخي، لقد ولى زمن الاحتلال". لكنه حتى الآن لم يجد ما وُعد به، فلا زال حمالاً شيالاً يطوف أرجاء السوق كل يوم يحمل للناس أمتعتهم وأغراضهم، ويجمع ملاليمه أخر النهار ليحولها بضعة أرغفة وبعض الطعام لأولاده، إنه ما زال ينتظر، ولكن الجوع لا ينتظر، فما ذنب الصغار أن الضباط لم يفوا بوعودهم؟!!.

كانت الأقدام تتسارع لمن ينوى استقلال القطار للذهاب جنوبًا نحو الصعيد المكتظ بخيالات وأحلام تشبه أحلام ذلك الشيّال البسيط، حيث لا أمل في مستقبل يختلف عن الواقع الممزوج بالمرض والجهل والإهمال، أو شمالاً نحو العاصمة الكبيرة الحلم القاهري، المدينة الخيالية التي لا ينقطع ضوئها، ولا ضجيجها، درة الشرق (مصر) كما يطلق عليها أبناء الأرياف والصعيد في كل أنحاء جمهورية مصر العربية.

الفلاحون يحملون خيرات طازجة كثيرة، تنبعث منها رائحة البركة والطبيعة. وصناع المدينة لا تمل أيديهم من صنع ما يحتاجه القادمون من مصنوعات وأدوات لا غنى لهم عنها. فالغزّالون يبيعون للفلاحين طواقي الصوف والوبر، والشالات، والفُرش المطرزة بالخرز الملون، والحدادون يصنعون أدواتهم، فئوسهم، وسكاكينهم، والنحاسون يبيضون أوانيهم الصدئة، بل الخياطون هنا أيضا يحيكون لهم ملابسهم.

كانت الواسطى حياتهم يعشقون شوارعها ودكاكينها وترابها وحرها، إنها متنفسهم يذهبون إليها للنزهة أو التبضع، واستخراج مكاتبتهم الرسمية شهادات الميلاد والوفاة، ومستخرجات التجنيد، وفيها أطبائهم القليلون وصاغتها المعدودون، وفيها دار السينما حيث الخيال بكل حقيقته، تعرض لهم منذ الصباح أفلام إسماعيل يس وليلى مراد، بل هنا أيضاً الدجالون والسحرة والمشعوذون، هنا كل ما يطلبونه تقريباً...

كانت وكالة(محمود الجمّال) تاجر الأقطان تتوسط شارع سعد زغلول أمامها تنبثق شجرة التوت التي بدأت ثمارها تتلون بلون الصيف الملتهب في جو

المدينة الملبد بالغبار، تلك الشجرة التي تضاهي في العمر عمر الوكالة حيث غرست في اليوم الأول لبدأ عمل الوكالة في تجارة الأقطان..

كان محمود الجمّال فلاحًا يزرع الأرض، ويبيع المحصول للتجار، ولكنه سئم الزراعة، وضاق ذرعًا بالطين والوحل، وأراد أن يغيّر شكل حياته، حيث كان يهوى السكن في المدينة؛ فقرر أن يبيع نصيبه من الأرض، ويأتي إلى المدينة ليعمل بالتجارة.

عرض الأمر على والدته وأخوته لكنهم رفضوا ترك تلك البلدة الصغيرة شمال الواسطى. نظرت إليه الأم في أسى وقالت:

- هل هانت عليك رائحة الأجداد؟! ونسيت عرق أبيك؟.. لن أذهب إلى الواسطى، إن شئت فارحل وحدك..دعني بجوار قبر أبيك، لن أترك عمري المنقضي وشبابي الذي أفنيته من أجل هذه الأرض...!!

لم يكن لديه كلمات يرد بها، ولكنه كان مقتنعاً بما نوى عليه، حاول تبرير رغبته في بيع نصيبه من الميراث؛ فتوجه بكلامه لأمه وإخوته المجتمعين في دهليز البيت الكبير:

- العمل في التجارة في المدينة يجلب أضعاف ما تجود به تلك الزراعات وهذه الأرض التي لا تعطينا ما يكفي قوتنا، وغداً سيكبر الأولاد وستزيد الحاجة.

اكتفت أمه بابتسامة باهته وقالت في صوت محزون:

- بع يا محمود نصيبك لن يلومك أحد، ربنا يرزقك يا بُني..!

استعطفها مئات المرات أن تأتي معه، ولكنها رفضت بشكل قاطع، وصرخت في وجهه :

- سأظل هنا مع أخيك نصّار في بيتي حتى أموت لا تتعب نفسك!

تركها محمود ممتعضاً مهموماً فقد كان راغباً في صحبتها..، وانتقل للواسطى، واستقبلته المدينة بملامحها المتداخلة كتلك الحواري والأزقة المتلاصقة، واشترى هذا المكان الواسع الذي كان مخزناً مهجوراً لأحد تجار الصوف الشاميين الذي قرر أن يبيعه، ويعود إلى بلاده.

كانت تلك الساعة التي بدأ فيها محمود الجمّال العمل في مجال تجارة الأقطان ساعة الحظ الموفور الذي لازمه في تجارته؛ فزادت أعماله واتسع نشاطه، وأشرقت له شمس الأيام الضاحكة، وتفتحت على صبح الغنى والجاه والمكانة الكبيرة، حتى صار بعد عام واحد أكبر تاجر في مركز الواسطى، وبات الربح يبحث عنه، وأصبح ذا كلمة مسموعة في منطقة شمال الصعيد كلها. وقد ساعده على ذلك نظافة يده وابتعاده عن الغش والحرص على تقديم المنتج الجيد .

كان الإعجاب الممزوج بالانبهار بقدرته على إدارة أعماله محل حديث كافة أبناء المدينة فتلهف التجار وأصحاب المال لصداقته كان الرجل بمثابة الساحر الذي يبهر كل من يشاهد قدرته على تحويل الأشياء، وعرف بين

الناس بدقته وخفته وسرعة بديهته في اصطياد الفرص، وكان يرفض فكرة الشراكة ورغم حاجته المال للتوسع في أعماله، والإيفاء بما يطلبه زبائنه.

كانت الوكالة تواجه قصراً كبيراً لأحد القضاة المعزولين (رءوف باشا الأسيوطي)، يمتد سور القصر بمحاذاة الشارع حتى منتصفه، وكان الرصيف الملازم للسور مكانًا أمنًا ومناسبًا لرص أجولة القطن المتخمة، مما زاد من كمية المعروض من أقطان، فعندما تقبل السيارات محملة بنوعيات مختلفة من القطن المصري، عندما كان القطن مصرياً قبل أن تمتد تلك اليد الخبيثة التي نزعت جذوره من وادي النيل. فيتم إنزال حمولتها بجواره والباقي يوضع في المخزن الكبير!!.

كان مكتب الجمّال في مدخل الوكالة حيث نصبه على يمين الباب الرئيسي بحيث يُشرف على العمال بالداخل والمعروض من القطن بالخارج والزبائن والتجار والمارة في الشارع، فقد كان يحب مطالعة الناس وهم يمرون في شارع سعد زغلول، كان كمن يجلس في الصف الأول في مسرح مكشوف، وكان يعلل ذلك بأنه ما جاء من قريته وسكن المدينة إلا لينال متعته بمشاهده الناس، والاستمتاع بأصوات التزاحم. كان الجمّال رجلاً مرحاً مورد الوجه ذا شارب عريض لا يملّ جليسه لقدرته على الحكي والحكمة، مُهندم الثياب دائماً يرتدي جبة وقفطان من أفخر أنواع القماش وطربوشه الأحمر مشدود على الدوام كما لو كان جديداً، وكانت يداه عريضتين بشكل يلفت النظر تشيران إلى الكرم والجود، ليستا كتلك الأيادي المرتعشة وهي تقدم المعروف، بل كانتا تفيضان بالخير على كل سائل يعرفه أو لا يعرفه. كان

حب الجمّال للناس سر تقرب العديد من جيرانه في الشارع منه، فقد كانوا يسعدون بالجلوس معه. والحديث إليه.

اعتاد على زيارة الوكالة مأمور المركز وضباطه ورجال الحامية العسكرية؛ فقد كانوا دائمي الحضور لتناول القهوة أو الحديث مع الجمال؛ فلم يكن بتلك المدينة الهادئة ما يدعو للقلق. فانشغال الناس بتجارتهم وأعمالهم صرفهم عن الشر بشكل كبير؛ فلم تسجل جريمة واحدة منذ عامين تقريباً حتى صراعات السوق ومناوشاته كانت تختفي بتدخل بعض التجار الكبار.

في عصر ذلك اليوم من أيام شهر مايو حيث الجو المُلبد برطوبة خانقة كان الجمّال قد جلس بجوار الراديو يستمع لذلك اللحن العسكري المنبعث من إذاعة صوت القاهرة، وإذا بصديقة الفيومي عبد الوهاب الباسل(والده الباسل الكبير من زعماء ثورة ١٩١٩) الذي اعتاد زيارته كلما دفعته أعماله إلى مدينة الواسطى، كان الباسل يبيع القطن في مدينة الفيوم في دكان تشارك فيه مع الجمّال، وقد جاء ليطلع شريكة على بعض الحسابات؛ فانزوى الرجلان في جانب من الوكالة..

كان الرجلان حريصين على حفظ الود قبل المال. وبينما انطلقت رائحة الكباب من تلك اللفة التي عاد بها أحد العمال حالاً من محل عبد الملك الحاتي فقد رفض الباسل أن يذهب إلى منزل الجمّال لتناول الغداء؛ حتى لا يتعطل العمل بالوكالة خاصة أن خليل عبد الواحد صهر الجمّال وزوج ابنته الكبرى لم يعد من المخزن بعد..

كانت دفعات الهواء المحمل بحرارة الجو والذي حركته مروحة السقف أعلى المكتب تستقبل القادمين؛ فتمنحهم بعض الراحة، بينما كان خليل عبد الواحد يدلف مسرعاً قادماً من المخزن الكبير بعد أن أشرف على تحميل كميات كبيرة من القطن الممتاز، طلبها بعض التجار والمنجدون.

لم يكن خليل يترك الوكالة إلا إذا طُلب منه ذلك. كأن يذهب لتسليم بضاعة كبيرة من المخازن، أو استلام مبالغ مالية، أو التفاوض مع إدارة المحلج على الكمية التي سيتم توريدها. سلم من بعيد، ثم جلس على الكنبة المحاذية لمكتب الجمال يبدو عليه تأثير الحر والإرهاق، وقال في صوت مُتعب مَرح : كم هم متُعبِون تجار التجزئة! استغفر الله العظيم..!!

لم يرد أحد، فالجمّال وشريكه مشغولان بحساباتهما؛ فاستسلم لحظات لتعبه ورقد على الكنبة الممتدة بجوار الحائط لعله يجد النعاس لدقائق، ولكنه لم يجد سوى العرق الذي غطى جبهته وشعر رأسه فدخل إلى الحمام، وتوضأ للعصر.

كان خليل شاباً طويلاً مليحاً، أنفه المستقيم وشاربه الرفيع زادا من وسامته، يرتدي جلباباً من الكشمير الخفيف ولاسة من الحرير المزخرف بزخارف مذهبة وطاقية من الوبر مزينة بخيوط ملونة بألوان زاهية على الدوام، ما إن يخطو خطوات حتى تفوح رائحة العطر الحجازي الذي يتعطر به. كان حب الناس له لا يقل عن حبهم لصهره الجمال.

قبل انتقاله إلى العمل في الوكالة كان يعمل في إدارة الري بعد أن ترك المدرسة، عندما مسّتهم يد اليُتم، فقد توفي والده الشيخ عبد الواحد المأذون ولم

يكن قد بلغ الخمسين، وأصبح الشاب الصغير الذي لم يبلغ السابعة عشرة مسئولاً عن إعالة أخوته، وكانوا أربعة من البنين، وبنتين كانتا أكبر منه.

ظل خليل يدافع الأيام، وبالصبر على أحكام الأقدار، والرضا بالراتب القليل الذي كان يحصل عليه مع معاش والده استطاع أن يعبر بهم نحو الأمان، فزوّج البنتين، وساعد إخوته الذكور كمال، ووجيه، وفريد، وعابد في إكمال تعليمهم، فأصبح فريد ضابطاً في الجيش- حيث كانت الكلية الحربية متاحة لكل المصريين - والباقون تخرجوا في المدارس المتوسطة. وأصبح وجيه كاتباً لمخزن الجمال في شارع الجزارين،

في حين كانت أمه تعاني ألماً متكرراً بالصدر. وبعد العديد من الفحوصات والأطباء اكتشف أنها مصابة بقصور في الشريان التاجي، فأصبحت حياتها مهددة طوال الوقت، لم تكن الأم تنسى دور ابنها الأكبر في رعاية إخوته؛ فكانت تخصه بالدعاء بالخير والبركة والنجاة من كل سوء.

وعندما قرر الزواج فكر كثيراً قبل أن يطلب (صباح) من والدها الذي كانت تجمعه بالمأذون صداقة تميزت بالوفاء. فهو لا ينسى تلك الأيام التي جمعت بين الأسرتين في حارة (ضيف) جنوب المدينة في بداية نزوح الجمال نحوها قادمًا من قريته (صفط الغربية)...

كانت صباح على قدر كبير من الجمال، لها وجه كقرص الشمس ناصع البياض تخالطه حمرة براقة تزداد في أوقات خجلها، وعندها من الفطنة ما يعطيها عقل سيدة عجوز، وكانت تجيد القراءة والكتابة فقد استقدم الجمال

معلماً مخصوصاً لتعليم بناته في المنزل، سبق أن تقدم إليها الكثيرون من الطامعين في مصاهرة الجمّال وفي جمالها الساحر.

كان الجمال يرى في خليل ملامح الشهامة والصبر؛ فعندما تقدم يطلب منه يد صباح لم يفكر كثيرًا ووافق بلا تردد، وبعد الزواج طلب الجمّال من خليل أن يترك العمل في إدارة الري وتولى الإشراف على بعض أعمال الوكالة؛ نظراً لاتساع مجال العمل وتعدد مشاغله بين الإشراف على العمال والتحرك بين المخزن والوكالة والمحلج، فقد أصبح في حاجة ملحّة إليه؛ فلم يكن له أولاد كبار، وهو في حاجة إلى من يثق به.

وجدت صباح في زوجها الأخ والزوج والحبيب، وشعرت في وجوده بحياتها، وأحبت تلك الصورة الدافئة في كلامه، وهذا الحنان المغرق في نظراته، وهذه الروح المرحة التي تمنتها، كما وجد خليل في صباح الطيبة الممزوجة بجمال وصفاء روح نادرين، فكانت هي الصخرة التي حطّمت سفن المحن المتتالية التي مرت عليه، مع هذه الرقة الحالمة في شخصيتها كان القدر يحتفظ له بأجمل هدية يقدمه له في ميلاده السابع والعشرين.

لم تجمع الصهرين أوقات العمل فقط، بل كانا لا يفترقان ليلا ولا نهاراً، فكانا يجتمعان ليلاً في مقهى (مرجان) للعب الطاولة وممارسة المرح مع رواد المقهى من التجار والعمال والاستماع لتلك المواويل المنبعثة من مغني الربابة، وهو يعدد أحوال الزمن..

كانت أفكار المتعددة (خليل) والفريدة سببا في توسيع نشاط الوكالة وزيادة أرباحها كل يوم، فقد فكر في عدم الاكتفاء بتجارة الأقطان، التي ضيقت عليها

الحكومة الجديدة كثيراً..فكانت فكرته بيع قماش التنجيد الفاخر؛ فقد كانت الأقمشة المحلية لا تجذب المشترين، فقد فُرضت قوالب بعينها يتم تكرراها في المصانع التي تم تأميمها، حتى أن المشتري لا يشعر بالاختلاف بين الفرش الجديد وهذا الذي اشتراه العام الماضي، فلم تكن الدولة الجديدة تعرف سوى الصوت الواحد، وأرادت تعميمه، وكأنها لا تعترف بالاختلاف بين أذواق البشر وتوجهاتهم، وخلت المنسوجات من الجمال الذي حمله المنتج المستورد، وكان من المستحيل أن تقاوم الأقمشة المحلية التغيير، فأقبل الناس على شراء القماش المستورد المتجدد في أشكاله ونوعيته دائماً، وراجت تجارته في قطاع التنجيد فقد أحب الناس تلك الألوان الزاهية والرسوم المبهجة التي تفنن فيها الخواجات فأصبحت الوكالة تجمع بين بيع الأقطان وبيع القماش المستورد الممتاز .

.....

في مواجهة وكالة الجمّال كان السور الممتد في شارع سعد زغلول يطاول أشجار النخيل وأطراف أشجار المانجو التي كانت تطل من أعلاه. لا أحد يعرف ما بداخل هذا القصر الشامخ؛ سوى هذا الباب الخشبي السميك المطل على الشارع والمرصّع بمقصّات من الحديد، فقد فرض رءوف الأسيوطي باشا تلك العزلة على نفسه منذ فترة طويلة، وزادت عزلته بعدما عزلته الثورة من منصبة بالمحكمة الابتدائية، وجردته من أملاكه، إلا مائة فدان فقط كل ما بقي له ولأخيه الذي لا يعرف عن مصيره شيئاً.

قبل يوليو سنة ٥٢ كان الأسيوطي من فئة البشوات الأثرياء ، يمتلك أكثر من ألف فدان والعديد من القصور ورثها هو وأخوه الأصغر (عاطف)، الذي هاجر منذ زمن.

كان عاطف هذا شابا وسيماً مرحًا دائم التواجد بالإسكندرية، قلما يزور مدينة الواسطى، وذات يوم دخل عليهم في منتصف يوم حار يحمل حقيبة خفيفة في يده، وبعدما حياهم انحنى على يد والده الباشا وقبلها، ثم أخبرهم برغبته في الزواج من فتاة يونانية تقيم بالإسكندرية .

لم يتوقع تلك الثورة من والده، وأخذت والدته تلومه على هذا التفكير بل وبخته:

- أتريد أن تتزوج من بنت خوجاية لا نعرف أصلها أو فصلها؟! هل نسيت من أنت يا ولد؟! أنت ابن بشوات..! ولا بد أن تتزوج من بنت بشوات .. هل فهمت؟
- يا أمي الحب لا يعرف تلك الفوارق التي تتكلمين عنها..!! ثم إنها فتاة من أسرة كبيرة في الإسكندرية..!

نظرت نحوه في حدة وقالت غاضبة:

- لا كبيرة ولا صغيرة .. لن تتزوج إلا بمن نختارها لك..!!

حاول عدة مرات إقناعهم بأنه يرفض تلك التقاليد التي قيدوه بها، فقد تعلّق بالفتاة اليونانية ولن يتنازل عن اختياره، فطرده أبوه من المنزل.

بعد أسبوعين عاد مرة أخرى وحاول كثيرا إقناعهم بالعدول عن رأيهم واستعان برءوف أخيه الأكبر ولكنه خذله ووقف في صف والديه، وعندما عجز عن إقناعهم بقبول زواجه من الفتاة التي أحبها ؛ ترك الفدادين والقصور وتزوجها بدون حضور أي من أفراد العائلة ، ورحل بها إلى أستراليا على متن سفينة شحن إنجليزية كانت راسية على شاطئ الإسكندرية، وانقطعت أخباره، ولم يرسل إليهم حتى رسالة واحدة.

ومات والداه وقامت الثورة ولم يفكر في العودة. حاول رءوف أن يتعرف أخباره، لكنه عجز عن ذلك، فلم يستطع أحد الوصول إليه رغم جهود العديد من معارفهم هناك. بعضهم قال: ربما يكون قد هاجر إلى نيوزلندا!!. وربما عاد إلى اليونان. وفي عام ١٩٦٨ شاهدوه في الإسكندرية مصاباً بالجنون يقذف بالأحجار في البحر، وينادي على اسم زوجته، لا أحد يعرف ماذا حدث؟! فقد اختفى مرة أخرى..!

لم يُعرف لرءوف أقارب آخرون، لقد اقترب من عامه الستين ، يسكن في هذا القصر، وليس معه إلا بعض العمّال وعوض الخفير، ولا يخرجون إلا قليلاً لشراء السجائر أو الجرائد أو بعض ما يحتاجون من الأطعمة والمشروبات، لقد ألزمهم بأن يأتوا بأسرهم، ويعيشوا معه.

لم تكن علامات الزمن قد تركت في الأسيوطي كثيرًا فقد عاش مرفهاً منعمًا منذ أن تعرف على الدنيا، فقد كان تعليمه الثانوي بالعاصمة، وسافر إلى فرنسا لدراسة القانون، وتنعم بحياة الترف، وعايش الحضارة والمدنية الأوربية، وعاد ليعمل قاضيًا في المحاكم المصرية، وأضاف إليه عمله

كقاضٍ نوعًا من الخصوصية والانعزال. كانت ملابسه أوربية، وسمته كالأجانب أيضاً ابيضاً مشرباً بحمرة غزيرة ممشوقاً يبدو عليه العز.

كان يكثر من التدخين وشرب القهوة المُرة، وزادت رغبته في التدخين بعدما عُزل من عمله، كما كان يتناول الخمر على فترات متقطعة، لم يُعرف له أصدقاء أو معارف، وقلّما يُفتح باب القصر لدخول أغراب.

لم يُظهر الأسيوطي أرآه السياسية تجاه الثورة وضباطها، استسلم لما فرض عليه، لم يتكلم مع أحد عما حدث في صيف ١٩٥٢، ففي ذلك اليوم وبمجرد علمه بما كان وانتشار الدبابات حول قصر الملك اتجه إلى مزرعته، وبقي هناك حتى جاءه قرار فصله من العمل، كان ساخطاً على الثورة والضباط كشأن كل البشوات والأعيان الذين استطابوا الترف قبل يوليو، ورأوا في الفكر الثوري الجديد عدواً لهم. ففي عامين اقتطعوا منه معظم أراضيه. إضافة إلى قصرين في القاهرة والواسطى، وسيارة جديدة، وعشرين ألف جنيه كانت في البنك. ووديعة مماثلة باسم أخيه.

كان يخرج في سيارته القديمة كل صباح متوجهًا إلى مزرعته القريبة من هرم (ميدوم)، مزرعة مربعة مساحتها سبعين فدانًا، مزروعة بالفواكه وبعض الخضروات، تمر بجوارها الترعة الرئيسية القادمة من ترعة الإبراهيمية، وبها زريبة واسعة للمواشي ومزرعة صغيرة للدواجن، ويشرف عليها (محروس) أحد القادمين من الصعيد يقيم بالمزرعة ليل نهار، لم يتزوج، وليس له أهل معروفون كحال رب عمله القاضي. وكان رءوف باشا الأسيوطي - كما كان يناديه عمال القصر وحراس المزرعة والفلاحون في

حقوله- يعاني الاكتئاب والوحدة لكنه لم يكن يصارح أحداً بما يعانيه؛ لأن تلك العزلة التي فرضها على نفسه أبعدت عنه حتى معارفه القدامى أو زملاء العمل السابقين. فلم يكن مهتماً بعلاقاته مع الناس، فقد فَقَدَ الحماس للحياة بعدما شعر بالذنب نتيجة خذلانه لأخيه الذي كان يحبه كثيراً، وكم ندم على وقوفه في صف والديه ضد رغبة ذلك الشاب الرائع!!. كان كلما تذكر نظرات الاستعطاف من أخيه يتزلزل كيانه.. ربما تنهمر دموعه خلسة ندماً.

خاض الأسيوطي تجربتين للزواج، وعانى كثيراً، فقد تزوج في مطلع شبابه من فريدة ابنة عمته كانت فتاة مرحة جريئة يحبها كل شباب العائلة إلا هو، اختارتها أمه لتكون زوجته وفرضوا عليها أن تقبل بذلك. في ليلة زفافه بها جلست على حافة السرير ترتدي فستانها المرصع بالكريستال والخرز البراق قالت فيما يشبه الهمس:

- رءوف..!!

نظر نحوها بعدما وضع كأسا كانت في يده على الطاولة:

- نعم يا فريدة..!
- أنت تعلم أننا لا نصلح لبعضنا.
- ماذا تريدين؟

فركت كفيها المحاطين بالحرير وقالت في عزم:

- لقد تزوجنا بشكل لا يليق بهذا العصر، فليس هذا هو العصر الذي يجبر فيه شاب أو الفتاة على الزواج، أليس كذلك؟!

نظر نحوها في ملامح خالية من الانفعال ورد في جدية واضحة :

- فريدة، سيكون كل ما تريدين ولكن ليس الآن ..!

استمرت تلك الزيجة شهرين، وكانا بلا خلاف ظاهر، وكان طلاقهما مفاجأة للجميع إلا هما، فقد اتفقا على كل شيء؛ فقد أجبرا على هذا الزواج الارستقراطي، فقد كانت تحب شابًا قبطياً تعرفت عليه في النادي الأهلي، ولكن لا يمكنهما الارتباط. وعندما عرف بزواجها من رءوف هاجر إلى أمريكا. وبعدما تم الطلاق رحلت لتلتقي بعشقها الأول. وبالنسبة لرءوف لم يعرف لمشاعره تجاهها سوى البرود والرغبة في فراقها.

بعدها تزوج من (سيدة) أخت أحد القضاة من زملائه في المحكمة الابتدائية كانت تصغره بعامين ومطلقة منذ عامين. خمس سنوات قضاها في جحيم تسلطها وتعاليها، فقد كانت دائمة الثرثرة عن أهلها البشوات وهو يكره تلك الثرثرة، لم ينجبا؛ فطلبت الطلاق فوافقها على طلبها؛ ليستريح، وعاش بعدها بلا زوجة، ولكن ليس بلا امرأة. فقد كان يسافر إلى العاصمة لينال اللذة الحرام في بعض البيوت المشبوهة، حيث كان ضيفًا معروفاً لدى القائمات على تلك الأوكار، وربما تقوده خطواته نحو مَرقص أو ملهى يقضي الليل بين كئوس الخمر منزوياً في ركن بعيد، وبعدها يصطحب إحدى الساقطات إلى شقته المغلقة في العجوزة، وأحياناً كان يسافر إلى أوربا؛ ليقضي بعض

أوقات المتعة المحرّمة. كان القاضي عربيداً متخفياً خلف صمته وعزلته. وإن لم يكن طاووساً معجباً بنفسه.

منذ يومين وهو يشعر بألم في جانب صدره الأيسر؛ فقرر أن يسافر إلي القاهرة؛ ليعرض نفسه على طبيب متخصص في أمراض القلب، تقع عيادته في شارع رمسيس،الدكتور صبري ابانوب كان زميلاً له في فرنسا أثناء الدراسة، بينهما معرفة لم ترتق إلى درجة الصداقة في نفس عمره تقريبًا، وإن بدا أكبر منه. كانت عائلته من أكبر العائلات المسيحية في أسيوط من حيث العدد فقط!! فقد كانوا كعامة الناس. سافر إلى باريس في منحة تابعة لجامعة فؤاد نظير تفوقه.

نظر نحوه وقال في صوت عطوف:

- ماذا بك يا رءوف باشا؟!
- الآم في جانب صدري الأيسر، تزداد ليلاً، مع شعوري بإرهاق بصفة مستمرة.

ابتسم الدكتور ابنوب وهو يخط في الروشتة أسماء الأدوية وناولها له وقال:

- ما تجده مجرد ألم عابر نتيجة الإكثار من التدخين والقهوة والأرق، ومن الآن لا بد من التوقف عن الدخان أو تقليله بصورة فورية وكذلك القهوة، وقد كتبت لك له دواءً منومًا لتتغلب على الأرق.

وبعدما انتهى من فحص الأسيوطي جلس بجواره على أريكة كبيرة كانت بحجرة الكشف، ودار بينها حديث طويل عن الماضي أثناء شبابهما في أوربا وعن الحاضر في الوطن، وجد ابانوب أنه سيعيقه عن مواصلة عمله، ويغضب مرضاه المنتظرين بالخارج؛ فطلب من صاحبه أن يزوره ليلاً في بيته في منطقة الزمالك، وأقسم عليه بذلك!!

في ذلك اليوم كانت أمطار ديسمبر تعفر وجه القاهرة برزاز متدافع كحبات الأرز، أخذ الأسيوطي وسائقه يتجولان في أنحاء محدودة في القاهرة، ويتنقلان بين المقاهي، وعندما حلّت التاسعة توجها إلى بيت الطبيب ابانوب الذي أعدت زوجته مأدبة لصديقه القاضي الصعيدي، وفي جانب من البهو الواسع المزين بتلك الثريات الفضية وصورة العذراء وابنها الرضيع والملائكة الصغار، كان موضع ذلك الخوان الايطالي المذهب. جلست معهما على طعام العشاء. تحدث الأسيوطي عن وحدته وأرقه، تكلمت مدام (كريستين) بلغة فرنسية:

- لماذا لا تتزوج يا باشا؟ فأنت في هذه السن في حاجة إلى من يكون بجوارك، ويشاركك في أيامك وحياتك.ألا تشتاق إلى الدفء! قالتها وهي تبتسم، وتنظر لزوجها!!

اكتفى بالتبسم! وكأنه تذكر زوجتيه السابقتين! وعلت نظراته نحو السقف المزركش بتلك الزخارف المربعة المصلّبة.

وصدّق الطبيب على كلام زوجته وأضاف:

- لا بد من أن تتزوج، فأنت لا تزال بصحة جيدة، ولديك من المال الكثير، فلم لا؟! ولعل الله يرزقك بابن يكون سنداً لك !!

زادت ابتسامته ربما كانت تلك أمنيته!! ثم صمت للحظات، ويبدو أنه قد أقتنع بكلام السيدة وزوجها، وأمسك بكوب الماء وارتشف قطرات قليلة في هذا الجو البارد، ثم التفت إلى الدكتور ابانوب، وقال في أسى:

- لقد خضت تجربتين فاشلتين، وعانيت كثيراً، وأخشى الفشل في المرة الثالثة أيضاً، وأنا في هذه السن!!.

رد الطبيب في حكمة :

- نصيحتي يا باشا،أن تتزوج من فتاة من أسرة متوسطة، وابتعد عن ذلك الصنف الارستقراطي. فالسيدات والفتيات من الأسرة العادية أقدر على تحمل كل الظروف، وستكون بالنسبة لكثير منهن فرصة لا تعوض؛ نظرًا لثرائك، ومكانتك ووسامتك ولا تعبأ بأمر السن فهو لا يبدو عليك.
- يدي على كتفك ابحث لي عن آنسة بالصفات التي ذكرتها، وسأكون شاكراً لو أسديت إلي تلك الخدمة..

ابتسم الطبيب الصعيدي هو وزوجته، وودعه حتى الباب مع اقتراب الليل من انتصافه.

.....

كانت مخازن القطن الخاصة بمحمود الجمّال في شارع الجزارين، ولم يكن الاسم دالاً على نشاط أهل الشارع، فقد كانت معظم دكاكينه للعطارة وتجار القماش، وفي وسطه تنبثق حارة المنجدين حيث ينطلق الغبار وأصوات الخبط على القطن عند تفتيته، وبعد الانتهاء من مرتبة أو لحاف. مدخله الشمالي في شارع سعد زغلول ونهايته المزروعات جنوب المدينة، لم يسأل أحد لم سُمي الشارع بهذا الاسم؟، فقد وجدوه يحمله رغم خلوه من أي أشكال العمل في مجال الجزارة. رائحة الكمون والزعتر والبخور، إضافة إلى رائحة القماش الجديد تنطلق في كل أرجاءه. في وسطه تقع قهوة (مرجان) تنطلق منها رائحة القهوة والدخان المعسل وأصوات الخبط بقطع الدمينو وزهر الطاولة، كان المقهى ملتقى التجار في الواسطى ليلاً ونهاراً، يبدو ضيقاً في مدخله، ولكنه يتسع بالداخل، فعقد الصفقات التجارية يتم بالداخل دومًا بعيداً عن ضجيج الشارع المزدحم، ويكفي صوت ربيع العطار.

وربيع العطار يقع دكانه في مواجهة المخزن الكبير للجمّال ملاصقاً للمقهى، وهو رجل قصير القامة ممتلئ البطن ورث هذا المكان عن أبيه، فلم يكن له أخوة سوى سيدة تدعي (نعيمة) تكبره بزمن طويل، وله ثلاثة من الأبناء لا يختلفون عنه في طبائعهم وأشكالهم يساعدونه في أعمال الدكان، وكان ذا صوت جهير دائم السباب للعمال ولأبنائه، يتحايل على النساء، ويبع لهن ما ركد من أعشابه على أنها تصلح بين الأزواج، أو تعالج الأمراض، أو تزوج العانسات، وتفك النحس. بل إنه أقنع سيدة ريفية جاءت تشكو إليه قلة اللبن الذي تنتجه بقرتها أن هذا المسحوق الذي ستضعه مع التبن سيجعلها تعطي أضعاف اللبن، ولم يكن سوى مسحوق الحلبة وبعض نشا الأرز، وحيث

كانت عقول البسطاء على استعداد للتجاوب مع ما يلقيه ربيع من كلمات غامضة وأسماء غير مفهومة لما لديه من مواد فهو يصفها بأنها مرة هندية، ومرة تركية، ومرة أفغانية؛ وقد أقبل عليه الناس وبأعداد كبيرة، ولكنه الطمع الذي ملأ قلبه وفكره؛ فلم يعد قانعًا بهذا الدخل الوفير.

كانت جلساته مع التجار في المقهى لا تخلو من نوع من التمازح عليه وعلى تلك الأفكار التي تطل برأسه بين الحين والأخر، فقد أخبرهم يوماً أنه كان يسير ليلاً بجوار مقام الشيخ زارع المصلوب، وسمع صوتًا خافتًا يناديه :

- يا ولد، يا ربيع!!.

فالتفت يميناً ويساراً، ولم يجد مصدر الصوت.

فهمّ بالجري، ولكنه سمع الصوت يناديه بنبرة أوضح :

- اقبل يا مبروك!! لقد اخترناك لتكون شيخ العطارين في الواسطى، وسوف نعلمك الطب فلن تعجز عن علاج أي مرض! ثم أعطاه كتاباً مكتوبا بماء الورد أو الذهب..... لا يتذكر.

سأله عنبر عامل المقهى :

- أين هذا الكتاب يا عم ربيع ؟!

رد ربيع وقد احمر وجهه وارتخت عضلاته:

- في المنزل، ورحمة أبي!

ضجّ المقهى بالضحك، فجمع أطراف ثوبه الكستور الأبيض المخطط بالأزرق طولياً، واندفع نحو محله فقد أقبل عليه أحد الفلاحين يحمل ابنه الصغير الذي يعاني من شلل في إحدى رجليه فأمسك ربيع بقدم الطفل وأخذ يتحسسها، وهو يهذي ببعض العبارات الغامضة التي تعلمها من أحد الدجالين الذين يتوافدون على دكانه؛ لشراء ما يحتاجون من أعشاب ومواد يخدعون بها البسطاء والجهلاء، وأخيراً وصف للرجل وصفة قيمتها عشرين قرشًا، كانت كل ما يمتلك الرجل المسكين، أخذها الرجل، وركب حماره وأمامه الطفل الذي لم ولن تتغير حالته، ولن تجدي معه وصفة ربيع نفعًا.

كان ربيع يحمل بداخله غيرة وحقداً على الجمّال وتجارته. فهو يؤمن أنه السبب الذي أرسله الحظ حتى يصبح صاحب كل هذه التجارة. فقد كان الرجل الشامي - صاحب المخزن الذي تحول إلى وكالة الجمّال في شارع سعد زغلول- قد عرض هذا المخزن للبيع، ولم يتقدم أحد ليشتريه، بينما كان الجمّال يبحث في أرجاء المدينة عن مكان يصلح لبيع الأقطان، فقد جاء غريباً من قريته منذ أيام قلائل، في ذلك الوقت من شهر سبتمبر حيث اقتربت الساعة من الرابعة بعد العصر، وبينما أتعبه البحث جلس على مقهى مرجان؛ ليستريح. تصادف أن جلس العطّار قريبًا منه في مدخل العطارة، وبينما الجمّال يسأل صبي المقهى عن سمسار يرشده عن مكان يصلح كدكان، سمع ربيع الحوار؛ فأقبل على الجمّال، وجلس بجواره وسلم عليه بود مبالغ، وكأنه يعرفه من زمن، وقال بصوت دافئ :

- سمعتك يا ابن عمي تسأل عن سمسار ،خيراً إن شاء الله؟!!

اعتدل الجمال في جلسته وقال في جدية واضحة:

- أبحث عن مكان يصلح لتجارة الأقطان.
- طلبك عندي مكان ممتاز في شارع سعد زغلول.

علت ابتسامة على وجه الجمال ولكن صوته امتلئ بالحيرة:

- شارع سعد زغلول! لعله غالي الثمن!!

أراد العطار طمأنته فقال في ثقة :

- لا لا تقلق سوف نتفاوض مع البائع، إنه أحد التجار الشاميين يرغب في بيعه؛ ليعود إلى أهله. هيا بنا نذهب إليه!

كانت تلك الكلمات الدافئة وهذا الترحيب من ربيع العطار دافعًا للجمّال بأن يصدق أنه مجرد واسطة في الخير، ولكنه تعجب عندما طلب العطار عمولة أكبر مما يطلبه السماسرة، وعرف بعدها من المعلم (دعبس) تاجر النحاس أن وجود قصر الباشا رءوف الأسيوطي في واجهته قد أخاف التجار من الاقتراب من المخزن خشية سطوته، فهو يكره الأصوات العالية أو الضجيج، وطالما أرسل رجاله إلى خارج السور ليبعدوا من يقترب منه، أو من ينادي بصوت مرتفع، وليمنعوا السيارات أو الحناطير أن تقف بجوار السور...

ولذلك أصر العطار على إضافة بند الشرط الجزائي الكبير في عقد البيع حتى لا يتمكن الجمّال من التراجع عن شراء المخزن.

اشترى الجمّال المخزن، وبدأ في تجهيزه فلم تكن أية قدم قد وطأته منذ مدة، فكان مرتعاً للأتربة المتراكمة في أنحاءه وجحور القوارض، وأعشاش العنكبوت المتراصة على السقف وعلى الجدران، ودهن حوائطه باللون الزهري فأعطى لمن يدخله إحساساً بالبهجة، وحوّله إلى وكالة القطن، وتوكّلَ على الله، ولم يعبأ بما قيل، وما قد كان، وقامت ثورة ١٩٥٢ وجردت رءوف باشا من سطوته وهيمنته بل ووظيفته أيضاً، وقلّمت مخالبه السلطوية على خلق الله، واتسعت حركة التجارة في المدينة، وأصبحت الوكالة في أحسن موقع بها.

كان ربيع العطّار لا يمل من تكرار عبارة : "أنا السبب لما فيه الجمّال من عز وغنى"، وكلما خلا بنفسه في وقت قيلولته أو في ليله المسهد يتحسر على أنه لم يكن تاجرًا للأقطان، ويلعن العطارة ومن دله على تجارتها. و في النهار كانت نيران غيرته وحقده تشتعل كلما وجد سيارة تقف أمام مخازن الجمّال، ولم تكن تلك النار تنطفئ أبداً لأن السيارات لا تكف عن العمل، فهي إما تقوم بإنزال حمولتها أو أنها تحمل الأقطان لتسافر لكافة البلاد.

مر على زواج خليل عبد الواحد من صباح ابنة الجمال العام الأول، لكن الخبر السار الذي انتظرته العائلة تأخر، فلم يحدث الحمل بعد؛ مما أقلق الجمّال المشتاق إلى رؤية أحفاده فالعائلة معروفة بخصوبة نسائها.

وفي أول يناير زادت حالة أم خليل سوءاً، وبدأت علامات الموت ترتسم على وجهها. كانت دموع خليل تسبقه وهو ينظر إلى أمه التي تعاني آلاماً تحاول إخفاءها كلما أقبل عليها. كانت أخر ما نطقت به دعوة لابنها بالستر، وأوصته بأخواته و بصباح.. ...

.....

سعى الدكتور صبري ابانوب في أمر زواج صاحبه القاضي، فقد رشح له (نوال) بنت شوقي أفندي أحد كبار موظفي وزارة الأشغال والموارد المائية. فتاة متوسطة الجمال، لكنها تملك من الإثارة ما يجعل جسدها الفتان ثروة قلّما تمتلكها أية امرأة. وكان حال الأسرة لا يزيد كثيراً عن جمال نوال، فقد كانت تعيش على الراتب الذي يتقاضاه رب المنزل.

وكان شوقي أفندي عبد الستار رجلاً متوسط الطول والثقافة والمعرفة، لكنه كان يتطلع إلى مستوى أعلى من قدراته وإمكانياته، يتملق البشوات رغم إلغاء الألقاب، ويسعى للقائهم، ويحب مجالستهم. كان يحلم بأن يصبح منهم رغم أنه يعلم أنه لن يكون، فقد انتهى عهدهم، وكان من الساخطين على ثورة يوليو بلا سبب.. كان يدمن الكذب كما كان يدمن الحشيش، فقد كان يلتقي ببعض الأشقياء ليلاً في غرزة بكير بجوار سوق روض الفرج. يختال عليهم بوظيفته كمدير للعموم، ويدعي صداقة كثير من البشوات والضباط. وربما تندروا عليه مع تأثير المُخدر؛ فيتركهم غاضباً عازماً على عدم العودة، ولكنه الحشيش يسحبه في الليلة التالية. فيُعيد الكَرَّة، ويعيدون تندرهم عليه.

باع أرضاً كانت ميراثاً لوالدته؛ ليشترك في نادي الصيد رغم أنه لا يجيد الإمساك ببندقية، ولينفق على حشيشه، وكان يذهب إلى النادي كل يوم تقريبًا يمر على كل الطاولات، ويذهب إلى كل الملاعب لعل أحدهم يسلّم عليه، أو يُلقي عليه التحية، ويذهب إلى عمله في وزارة الأشغال ليحكي لزملائه قصصه الخرافية في النادي، ففلان باشا دعاه إلى الغداء وفلان باشا طلب منه أن يسابقه في الصيد، وكانت قصصه لا تلاقي إلا استحسانه واستحسان زوجته. كانت خرافاته تلاحقه وهو يطلب ود البشوات الذين اندثرت أيامهم.

كانت نوال ابنته الكبرى قد أنهت دراستها في معهد الصرافة منذ سنوات، اقتربت منه وهو يجلس على كنبة عريضة تتوسط تلك الصالة الفسيحة في شقتهم الكبيرة وقالت في ود:

- أبي، لقد وجدت وظيفة سكرتيرة في شركة مقاولات في روض الفرج وأريد أن أتقدم إليها.

نظر الرجل نحوها في غيظ وقال في حدة :

- ومن قال أننا في حاجة إلى عملك؟ بنات العائلات لا يخرجن للعمل..! هل فهمت؟!
- لكن يا أبي كلنا يعرف كل شيء..!
- وماذا تعرفين يا ست نوال؟

ترددت قبل أن تنطق ولكنها تكلمت وهي تنظر نحو الأرض:

- لا دخل لنا سوى راتبك الذي لا يكاد يكفينا.. حتى الشقة التي كنا نؤجرها في الدور الأرضي مغلقة منذ ستة شهور..! وكما أرى أخوتي كلهم في المدارس، فما المانع أن أساعدك وأقضي على الملل الذي ينتاب حياتي؟!!

تغيرت ملامح الرجل وبدأ صوته يعلو وقال:

- يا نوال لم أعجز بعد لتشتغلي أنت على إخوتك ، ولا تنسي أنني مدير عام..!!

لم تجد نوال مفرا من الاستسلام لخيالاتها؛ فدخلت غرفتها وأغلقت الباب وبدأت تستعرض مفاتنها لنفسها مرة أخرى. وعندما طلبتها عمتها سعاد لابنها مختار رفض أبوها بشكل قاطع، وعندما علمت سعاد برفض أخيها لابنها؛ أعلنت مقاطعته للأبد. ومرت الأيام بنوال، وكلما تقدم لها شاب للزواج يرفض والدها بحجة أنه لا يناسبها ولا يتناسب مع مركز أبيها، حتى أن كل فتيات العائلة تزوجن وأنجبن، ومنهن من تصغرها بخمس وست سنوات. فما زال شوقي أفندي يحلم بالوصول إلى عالم البشوات، واعتبر ابنته الوحيدة وسيلته للوصول إلى مبتغاه، ولكن كيف؟ إنها ليست جميلة بالقدر الذي يجذب أحدهم، وكثيراً ما اصطحبها إلى النادي مرتدية فستانًا فاقعاً مفتوح الصدر؛ لعل واحد منهم ينتبه لوجودها!، لكن ذلك لم يحدث. فلم يلتفت إليها إلا طالبو المتعة السريعة مدفوعة الأجر!! فمنعها عن النادي.

التقى شوقي أفندي بالدكتور ابانوب في نادي الصيد وتعرف عليه صدفة، وصارت بينهما معرفة قوية، وكان الطبيب معتاداً على الذهاب للنادي بعد حضوره قُدّاس الأحد فرغم أنه لم يكن متديناً، ولكنه اعتاد على حضوره، وقلّما غاب عنه... ورغم أن الأحد ليس يوم إجازة من العمل في وزارة الأشغال، ولكن شوقي أفندي كان دائم التواجد بالنادي؛ ليلتقي به، فهو الوحيد الذي يتكلم معه وسط هذا المجتمع الراقي،الذي بدأت رياح التغيير تؤثر في مكوناته، فقد أضيف إلى رواد النادي أبناء وأسر الضباط الحُكام الجُدد، من خلال تعدد اللقاءات بين الرجلين تعرف كلا منهما على ملامح حياة الأخر، وأحس الطبيب بما يدور في رأس صديقه؛ و تيقن أنه لن يمانع إذا طلب منه يد نوال للقاضي الصعيدي.

كانت نوال تعلم أن ملامحها ليست على قدر فتنة جسدها، كانت تعرف أنها مثيرة، وأنها تمتلك شعلة نار متمثلة في هذا الجسد الفتان. كانت تقف بالساعات أمام المرآة تستعرض كل مفاتنها لنفسها، وتحلم بهذا الرجل الذي يمتلك القوة والقدرة على إرواء عطشها الجسدي، وامتصاص رحيقها الهادر من كل أجزاء بنيتها الجسدية، ولم تكن تعبأ بمن يكون؟، المهم أن يكون.

إنها لا تنسى تلك اللمسات التي خدرتها من جارها أحمد طالب الحقوق قبل أن يرحل من الشقة التي كان يستأجرها في منزل والدها، وكانت لا تزال طالبة في أول سنة بالمعهد حيث ضمها إليه في الظلام، وهمس في أذنها: أنها فاتنة، ثم أدلف مسرعًا إلى شقته بعدما سمع أصوات أقدام تتحرك على السلم، ولم يتكرر هذا اللقاء ثانية، ومن يومها ولم تنطفئ تلك النار بداخلها. لقد كانت

نوال متعطشة للزواج بل متعطشة إلى رجل، فهي لا تمانع أن تتزوج ابن عمتها أليس رجلا؟! ولكن ما السبيل؟!!!.

كان يوم الأحد الذي ينتظره شوقي أفندي للقاء صديقه الوحيد من بين رواد نادي الصيد. لم يتأخر طبيب القلب عن موعده، وشوقي أفندي كعادته خرج من عمله مبكراً قبل الثانية عشر ظهراً، وتوجه إلى النادي، وبعد سلام حار مشوب بتملق واضح لصديقه الطبيب جلس على المقعد المجاور للدكتور صبري، الذي نظر إليه بابتسام، وقال:

- أحد أصدقائي طلب مني أن أرشح له فتاة لتكون زوجة له، فكانت ابنتك أول من خطر ببالي. فما رأيك؟

كانت تلك الكلمات قد رسمت الفرحة على وجه الرجل المتطلع لمصاهرة البشوات والأكابر فرد في سرور مبالغ:

- ومن يكون ؟! أحد الأطباء؟! أم أحد البشوات؟!

ابتسم الدكتور صبري وهو يرى تلك اللهفة في وجهه فرد عليه في ثقة:

- ليس طبيبًا إنه أحد البشوات، قاض في الصعيد، أقصد كان قاضيًا في الصعيد قبل الثورة.

رنت كلمة باشا و كلمة قاضٍ في رأس شوقي أفندي، وأخذت تتردد في مخيلته رغم أن العريس فقد اللقبين!!، وظن أن حلمه قد أشرف على البزوغ . فلم يتردد في إبداء الموفقة المبدئية، ولم يتمهل أن يسأل من هو؟ وما

ظروفه؟، ومن فرط سعادته ترك صديقه دون استئذان، وعاد إلى بيته؛ ليخبر زوجته بالخبر السعيد. أخيراً سيصبح صهراً لأحد البشوات الحقيقيين. واتصل بصديقه الطبيب بعدما عاد إلى منزله، واعتذر عما بدا منه من تصرف غير لائق عندما انصرف بغير استئذان، وأظهر موافقته على الأمر، ولكنه اشترط موافقة العروس رغم أنه يعلم أنها لن تمانع.

وبعد أسبوعين تقريباً أقبل رءوف الأسيوطي مع الدكتور صبري فوجدا الترحيب من شوقي أفندي، الذي حرص على أن يعرّف كل الجيران أن ابنته تقدم لها أحد القضاة، قدمت الأم للضيوف كل ما تملك من حفاوة وأطعمة ومشروبات. فقد كانت أسرة شوقي أفندي حريصة على أن تظهر بمظهر ارستقراطي مفتعل أمام عريس ابنتهم الوحيدة؛ فقد استدان مبلغًا كبيراً اشترى به ملابس جديدة لأبنائه الذكور وفستاناً قيماً لنوال وكذلك الأم، واشترى لنفسه بذلة غالية، وقدم للضيوف الأنواع الفاخرة من الحلويات والمسليات، ولم ينس أن يظهر بمظهر العائلات المتشبعة بالأفكار الغربية، فحرص على شراء بعض الخمر وأنواعاً من السجائر الأجنبية؛ ليُظهر الترحيب بالعريس المقتدر القاضي ابن البشوات.

لم يطل الحديث حول أمر الزواج فقد كان الاتفاق موجوداً؛ فكلا الرجلين وجد ضالته. الأسيوطي وجد آنسة متعلمة كما كان يطلب، فهو يرفض الزواج من مطلقة أو أرملة، ومن أسرة متوسطة، ويبدو عليهم سعة الحال. وشوقي أفندي وجد الباشا الذي كان يحلم به، ولم يكن هناك عائق يُذكر، فقد وافقت نوال عندما شاهدت العريس ووسامته رغم سنه الذي لم تأبه به، المهم هو

رجل. أما والدها فلم يكن مهتمًا بأمر السن بقدر اهتمامه باللقب الذي يحمله رغم إلغاءه.

كان كل كلام شوقي أفندي حول مركزه في وزارة الأشغال، وعن تاريخ العائلة، وعدد الخُطّاب الذين تقدموا لابنته. كما كان الاتفاق بين الصهرين موجوداً حول الحنق على الثورة وما أنتجته.

نظر شوقي أفندي لرءوف وهو يرفع كأس الويسكي نحو فيه وقال:

- هذه الثورة لم تأت إلا بالحثالة ليكونوا على رأس الدولة.. أين عصر البشوات أولاد البشوات؟

كانت ملامح رءوف قد تغيرت فقال في أسى:

- لقد اخذوا أرضنا ليعطوها للجرابيع والمقاطيع، حتى الخدم والكلافين أصبحوا من أصحاب الأملاك، حتى وظيفتي كقاضي حرموني منها.
- لا تهتم يا باشا سيعود كل شيء أفضل مما كان..! وهل أنت في حاجة إلى وظيفة؟! يكفيك أنك باشا..!!
- كنت باشا يا شوقي أفندي..!

قالها الرجل وهو يشعل سيجارته ويسعل بعدها، أما الدكتور ابانوب فكان متحفظاً للغاية لم يبد أي رأي بل ظل صامت طوال الجلسة. فالرجل لم يكن للثورة أية تبعات عليه سلباً أو إيجاباً، فلم يكن إقطاعياً فقد أرضه، ولم يكن في

حاجة إلى تملّق الضُباط، فعيادته مصدر دخله، ومرضاه كلهم من عِلية القوم الآن وأمس.. وعندما تلكم في نهاية الجلسة قال :

- بإذن الله يا شوقي أفندي غداً نشتري الشبكة والزفاف بعد أسبوعين، وبعدها يقضي العروسان أسبوعًا في أحد فنادق القاهرة، يعودان بعده إلى قصر رءوف باشا في مدينة الواسطى في الصعيد...

رد شوقي أفندي في فرح:

- على بركة الله .

كانت فرحة شوقي أفندي سببًا لأن يظل طوال الليل هائماً بين أحلامه ودخان الحشيش، يفكر كيف سيتطاول على زملائه في العمل وجلساءه في غُرزة بكير بعدما أصبح صهراً لأحد البشوات؟!

كانت خيالات نوال الجنسية قد اكتملت بصورة الرجل الذي تحلم به، وأخذت تتطور خيالاتها إلى أحلام يقظة، تتصوره وهو يضمها، وهو يقترب منها، وهو يعانقها وهو يقبلها، وهو يرشف رحيقها. تعد الساعات، تقيس قمصان نومها التي اشترتها من أكبر محلات وسط البلد، ثم تعيد قياسها، وتنتظر هذا اليوم الذي تخلع ثوب عذريتها، وتتعرى لرجل ينال منها ما تشتهيه.

تم الزواج، وعادت نوال مع زوجها إلى قصره المنيع بمدينة الواسطى، مرت الأيام، ومر العام الأول، وكل يوم تضعف قوة الرجل عن اليوم الذي يسبقه، خاصة وأنها لا ترحم سنه المتقدم، تظهر له كل يوم من مفاتنها ما لم يره في

أمرآة أخرى، ورغم ذلك لم يحدث الحمل، ويبدو أنه لن يحدث فالرجل تزوج مرتين، ولم يكتب له أن يكون له خَلف، أخبرها الأطباء أنها لا يوجد لديها مشكلة ربما تكون العلة في الزوج، ونصحوها بأن تقنعه بأن يجري فحصاً لمعرفة السبب، ولكن القاضي الصعيدي رفض وبشدة بل صرخ في وجهها :

- لا أريد أولاد أو خلف، هل تفهمين؟.

نظرت نحوه في اشمئزازا ثم اندفعت إلى غرفتها باكية، وبعدما يئست من أمر إقناعه بالذهاب إلى الطبيب استسلمت، وارتضت بالحياة معه بلا أولاد، وبدأ الملل يجتاح علاقتها بزوجها، فلم يعد كما كان فقد ضعفت قواه، وأصبح يغيب عنها بالأسبوع والأسبوعين يذهب للقاهرة أو يسافر إلى أوربا بمفرده، ويتحجج بالعديد من الحجج لينام بعيداً عنها، وربما بات الليالي في المزرعة .

حاولت نوال أن تشغل وقت فراغها بإعادة ترتيب القصر ومكوناته، وأشرفت على عمليات التجديد التي استغرقت وقتاً في شراء المنقولات الجديدة من أثاث وغيره، وإعادة طلاء الجدران وتزيين السقف بالإشكال والزخارف، وأضافت إلى مكتبة القصر بعض الكتب الأدبية والقصص والروايات، ولكن كل ذلك لم يستغرق سوى شهرين تقريبًا، وبعدها عاد الملل مرة أخرى. استدعت أمها وأخوتها؛ فأقاموا عندها أسبوعين وعادوا إلى القاهرة ليعود الملل، وعادت إليها أحلامها الأولى، وحاولت أن تنشغل بالكتابة الأدبية، ولكنها لا تعرف ماذا تكتب؟ فأخذت ترسم أحلامها صوراً جنسية، ولكنها تخشى أن يلاحظها أحد الخدم أو يلاحظها زوجها؛ فتوقفت، وزاد مللها، فلا أصدقاء ولا أقارب ولا زيارات.

عندما يحل الليل تجلس مع زوجها بجوار المذياع، ثم تشعر بالضيق فتخرج للشرفة تقف بالساعات، وربما مَنّ عليها الأسيوطي ببعض الدقائق الساخنة، وما هي إلا لحظات يصبح غير قادر على الاستمرار؛ فيلقي بنفسه بجوارها بلا حركة.. يبدو أن الزمن أفقده معظم قدرته!!

هذا القصر الفسيح لا أحد يدخله سوى العاملون به وسيارة الأسيوطي، كاد الملل والضيق يقتلانها فرغم أن الحياة المليئة بالضجيج والحركة لا يفصلها عنها سوى سور القصر، فالواسطى رغم كونها مركز في الصعيد، ولكن بها المطاعم والمقاهي وبها دار سينما تعرض نهاراً وليلاً أفلاماً لليلى مراد، وإسماعيل يس، وفريد شوقي، ولكنها ممنوعة من الاختلاط بهذا المجتمع.

أشارت على زوجها أن تذهب معه إلى مزرعته ربما تجد ما يسليها. وافق الأسيوطي بلا تردد، بل أخبرها أنهم سيمكثون هناك عدة ليال، فرحت بالخروج من هذا السجن.

عندما حلّ الصباح جمعت بعض ملابسها، وأخذت حقيبة صغيرة بها بعض مستلزماتها، وتحركت السيارة إلى مزرعة (ميدوم). لم تكن المزرعة بعيدة عن مدينة الواسطى كثيراً، ولكنها فرحت للتغيير المنتظر.

في أحضان الحقول الشاسعة تتوسط مزرعة الأسيوطي الطريق بين هرم ميدوم والمدينة، تتسابق الأتربة فوق أرضية الطريق الضيق. وكلما اقتربت من المزرعة بدت لها ملامح العمال داخلها، فهؤلاء العمال معظمهم من الشباب الصغار، ولنقل الأطفال الكبار أعمارهم بين العاشرة والثامنة عشر، حيث لا تعليم ولا أمل في مستقبل يختلف عن حال الآباء الفقراء، فرغم

الثورة ورغم المزاعم التي سمعوا بها فما زالوا في أخر اهتمامات الدولة الجديدة، تختلف ملامحهم ما بين السمرة القاتمة والسمرة المشوبة بحمرة الشمس، وتجمعهم مزرعة الأسيوطي والمشرف عليها محروس الصعيدي. ذلك الشاب الذي لا يُعرف له أصل، جاء به والده وهو لا يزال طفلاً، وسكن أحدى العشش بجوار الطريق الزراعي، حيث كان يعمل الأب حداداً، يضع كوره وفحمه أمامه طوال النهار، ويصنع للفلاحين ما يحتاجون إليه من فئوس، وسكاكين، وخناجر، ومناجل، ومعاول يشكلها من قضبان القطارات القديمة الملاقاة على طول خط القاهرة أسوان.

بعدما بلغ محروس العاشرة اصطحبه أحد الأطفال إلى مزرعة الأسيوطي الأكبر، وظل يعمل بها حتى بلغ العشرين، ولما بدا منه من الشجاعة والإقدام اختاره الأسيوطي الأب؛ ليصبح من حراس المزرعة والمشرفين على الحقول، ومرت الأيام وأممت الثورة معظم أراضي الأسيوطي، ولم يبق من حراس المزرعة إلا هو، يجمع هؤلاء الأطفال من مختلف القرى المجاورة للمزرعة، فهم مساكين تتضاءل أحلامهم بتضاؤل أجسادهم النحيلة من العمل المتواصل طوال النهار، ويحتضنون أحلامهم الصغيرة، ويرقدون في سكون من شدة التعب، ولا يفيقون إلا بعد الفجر مباشرة على صوت محروس، وهو يصرخ: استيقظوا أيها السفلة، ومن يغافله النوم يجد عصا الحارس قد حطّت في بطنه.

ورغم شدته معهم في العمل، ولكنهم يحبونه حبًا جمًا، فقد اعتادوا على صوته المزعج طوال النهار، إنه يوفر لهم الطعام والشراب والمبيت، ويعطي لكل واحد منهم جنيهاً صحيحاً أخر الأسبوع كأجرة. كان محروس بلا أسرة وبلا

أخوة وبلا أهل بعد موت والديه؛ فجعل من هؤلاء الأطفال أسرته. يزرعون في الأرض، ويطعمون الماشية والدواجن، ويأكلون من خيرها. والأسيوطي لا يكترث كثيراً بما يفعله محروس فقد أعطاه حقاً غير مكتوب بإدارة شئون المزرعة..

كانت سيارة الأسيوطي قد اقتربت من المزرعة مع اقتراب شمس الضحى من الرحيل وإقبال نار الظهيرة مشمرة في السماء. كادت لهفة العمال إلى رؤية زوجة رءوف باشا تطير بهم من أماكنهم، ولكنهم تمهلوا حتى وقفت السيارة أمام باب السراي (القصر الريفي) فتركوا أعمالهم، واقبلوا مسرعين يرحبون بهذه السيدة التي زادت شمس الصيف المقبلة لونها البرونزي الجميل بريقًا على بريقه. وكان فستانها الفستقي يلمع مع ضوء شمس النهار وشعرها الأسود الناعم قد فر من تلك العقدة التي جمعته بها خلف أذنيها، وانطلق وكأنه كان في انتظار تلك اللحظة للانطلاق مع الريح. فأخذ يهتز مع نسمات ذلك الصباح الحار.

كانت رؤية الريف والحقول، وهذا المنظر الذي لم تعتاده من قبل دافعًا لنوال أن تبقى لعدة ساعات بين المزروعات تندفع خلف الفراشات، وتقف تحت أشجار التوت تتناول من ثمارها الطازجة، وتتحسس سنابل القمح التي أوشكت على الحصاد، ثم تدلف إلى أحواض العنب، وقد أبهرها تناغم ألوانها مع ألوان العناقيد الغضة التي تدلت تحتها، وهبت عليها رائحة الليمون من تلك الأشجار المتناثرة في كافة الأرجاء؛ فخطفت بصرها، وأخذت تتجول بعينيها وهي تقف تحت شجرة التين العملاقة التي تتوسط المزرعة. لقد انتصف النهار، وهي كطفلة صغيرة في حديقة يوم العيد، ولم تشعر بالوقت

ولكن الجوع صرخ صرخته ببطنها فتوجهت إلى القصر الصغير، فوجدت من أصناف الطعام الريفي ما جعلها لا تقاوم الاندفاع، فأقبلت تأكل بنهم.

كان مجتمع هؤلاء الشباب الصغار تحت شجرة التوت الكبيرة في مدخل السراي بينما جلست نوال في الشرفة المطلة عليهم تسابقت نظراتهم إليها، وكلهم يحاول أن يُضحكها، أو ينتزع منها ابتسامة بحركاته أو بكلامه أو بمزاحهم المتشابك أحيانًا. ومحروس مشغول في ذبح جِدي كبير، ليعد طعام العشاء. ينادي على من يريده منهم، وهم يتحركون في نشاط ومرح نحوه عندما يطلبهم. ينادي على واحد منهم فيتحرك الفتي في خفة وهو يرقص ويجري نحوه، ويندفعون في ضحك متواصل على تلك الحركات!!!

ومع اقتراب الشمس من المغيب بدأ الهدوء يغطي المكان، وبدأ هؤلاء العمال في إدخال الحيوانات إلى حظائرها، وأعد محروس معدات الشواء، وبدأ العمل كطباخ محترف. كانت رائحة الشواء دافعاً لنوال إلى النزول والوقوف بجوار محروس وهو يعد الطعام، وقد أشعل المصابيح في كل أرجاء السراي ومدخلها احتفالاً بالسيدة زوجة الباشا. وبعد تناول العشاء جلست بجوار الباشا على مقعده، وأمسكت بزراعه، وقد بدأ العمال في الغناء والرقص والضحك...

مع هذا اللحن الريفي الجميل ودقات الطبلة وصوت الناي شعرت بسعادة كبيرة، وهاجت بداخلها مشاعرها الأنثوية؛ فلمّحت لزوجها برغبتها، ولكنه ما زال يعاني من الضعف الذي أصابه، فتركها وذهب لينام. كان نومه سبباً لأن تظل بجوار العمال الذين هبط عليهم تعب النهار فأخذهم على غِرة؛ فناموا

جميعاً في أماكنهم، ولم يبق سوى محروس ما زال مستيقظاً يمر على الحظائر. يُخرج وعاءً كبيراً يملئه بالماء ليسقي هذا الحمار الذي ملأ الدنيا نهيقاً، ولم ينته الأمر فقد فرّ أحد العجول من حظيرة البقر. ظلّ محروس قرابة النصف ساعة يجري خلفه حتى أمسك به، وأدخله بجوار أمه ثم أغلق الباب جيداً، وعندما عاد وجدها جالسة في مكانها، فاقترب منها، وسألها في لطف:

- هل تأمرين بشيء يا سيدتي؟

فردت في هدوء:

- فقط أريد كوباً من الشاي.
- يا سيدتي، الشاي في هذا الوقت سيجعلك لا تستطيعين النوم، وخاصة أنها زيارتك الأولى للمكان؛ فقد يصيبك الأرق.
- وماذا ترى يا محروس؟
- كوب من النعناع مع الحلبة سيكون أكثر مناسبة، وسيعطيك شعوراً أكبر بالراحة والهدوء.

فوافقت وانتظرت حتى أعده لها، فشربته وذهبت لتنام وعندما استقرت رأسها على الوسادة أطلت بمخيلتها عضلات محروس المفتولة ووجهه الأسمر البراق، ولكنها طردت تلك الأفكار، ولفت ذراعها حول عنق زوجها، واستسلمت للنوم.

في الصباح أكملت جولتها في أرجاء المزرعة، وأصبح محروس دليلها يشرح لها كيف تتم زراعة الخضروات؟ وكيف يتم جنيها؟ وما أنسب الأنواع للتربة؟ وما الأنواع التي تزرع في الصيف؟ وماذا يُزرع في الشتاء؟.

تسأل في براءة:

- هل تزرعون الأرز؟

رد محروس وجهه في اتجاه الأرض :

- لا ، الأرز لا يزرع هنا، ولكن لماذا ؟

أمسكت بسنبلة قمح وقطفتها من على عودها وقالت:

- سمعت من أبي أن الفلاحين يربون السمك في حقول الأرز، فأبي أصلا من كفر الشيخ .
- لا، الصعيد كله لا يُزرع فيه الأرز، فالأرض لا تحتفظ بالماء. وإذا كنت يا ست هانم، ترغبين في السمك؛ فلدينا ترعة كبيرة تمر بجوار المزرعة نصطاد منها أنا والعيال الكثير من البلطي والبياض والقراميط.

ابتسمت وهي ترد:

- جيد سوف نرى ما لديكم من سمك!!، فأمامنا وقت طويل...

بدأت مساحة الخجل بين محروس وبينها تتلاشى بمرور الوقت، فلم يعد يطأطئ رأسه وهو يحدثها كما كان يفعل أول الأمر، وبدأ يحدثها وهو يدقق في عينيها العسليتين. ولم تكن نوال تعرف الكبر أو التعالي كزوجة لأحد البشوات، بل كانت تتصرف بطبيعتها البسيطة. تختلط بالناس بسرعة، وترغب في المُكث بينهم. كانت حفلات هؤلاء المراهقين ورقصهم وغناؤهم وضحكهم أمراً معتاداً يقضون أول الليل في لهوهم ثم يحل عليهم التعب فيأخذهم النوم في دوامته فجأة؛ فيحل الصمت.. ومعه تطل رغباتها الأنثوية؛ فتمنعها من النوم.

ومرت أيام الأسبوع الأول، وجاء يوم الخميس حيث سيعود هؤلاء الأطفال الكبار إلى بيوت أهاليهم، فهم معتادون على ذلك يأتون للمزرعة يوم السبت صباحاً، يمكثون طوال الأسبوع، وفي نهاية العمل يوم الخميس يعودون إلى ذويهم، يقضون معهم بقية الخميس والجمعة، ويرجعون السبت فجراً وكأنهم في مدرسة داخلية أو حربية.

في مساء ذلك الخميس كانت الساعة قد تخطت التاسعة، ورءوف باشا كعادته قد غطّ في نومه العميق، ولكن زوجته الشابة جافاها النوم؛ فخرجت حيث يجلس محروس في مدخل القصر، كانت النار التي أشعلها ليغلي الشاي تضاهي نارها الأنثوية المكتومة. جلست بالقرب منه، وما لبث أن أعد لها كوباً من الشاي أضاف إليه وريقات النعناع الغضة، أنعشها مذاق الشاي المغلي، وحمستها رائحة النعناع النفاذة أن تظل مستيقظة. والحارس الشاب ذو العضلات الملفوفة والوجه الباسم في مكانه.. لم يبدل ملابسه منذ الصباح فما زال مرتدياً ذلك البنطلون الأسود السميك والسترة الرصاصية ذات

الأكمام الباهتة، يطل تحتها صديري أبيض تزينه عشرات الأزرار العاجية البنية والمموهة..

اقتربت بالكرسي الخشبي منه، وبدأت تسأله:

- ماذا عن حياتك يا محروس؟

فأجاب وهو يمتص من كوز ملأه بالشاي:

- حياتي هي هذه المزرعة وما فيها، فأنا أحب هذا المكان، ولم يعد لي من الدنيا إلا هذه المنطقة وهؤلاء الشبان الذين رأيتهم. يعملون معي نهاراً، ويفترشون أرض المدخل تحت شجرة التوت العجوز ويلتحفون بضوء القمر المتكون في السماء ليلاً. ويتركونني وحدي ليلة الخميس والجمعة.

سألته في خجل مفتعل:

- ولماذا لم تتزوج؟ وتأتي بزوجتك إلى هنا لتؤنس وحدتك عندما يتركك العمال.

أجاب وهو يضحك:

- يا ست هانم، أنا لا أفكر في الزواج لأني غريب عن هذه المنطقة، وأهلها لا يزوجون بناتهم لأغراب، وكثير منهم يعتقدون أنني من الغجر فقد كان أبي حداداً يقيم على الطريق، فليس لنا بيت أو أهل أو عائلة، وأمي كانت تعمل قابلة وضاربة للودع، ربما لو قابلت من تقبل بي زوجًا فسوف أتزوجها .

- لكنك شاب ولديك عمل ويمكنك أن تقيم مع زوجتك هنا في المزرعة.
- عندما يأذن ربنا يا ست هانم ستحل كل المشاكل.

كانت نظراتها تتفحص كل تقاسيم وجهه وعضلات ساعديه في خجل وهو يتكلم بصدق وصراحة، طردت ما خطر برأسها من أفكار، وعادت لتنام بجوار زوجها، وبينما كان جواد شبابها قد فك قيوده منطلقاً بقوة لا ترحم، وفيضان أنوثتها قد اندفع جارفاً كل ما تتظاهر به من الحشمة والوقار، في كنف هذا الرجل الذي تضاءلت قواه أمام بطش شبابها الجامح، ولم يعد رءوف الأسيوطي قادراً على مجارة هذه الرغبة من هذا الجسد المتوحش، وجدت نوال في حارس المزرعة ضالتها، ولكن كيف تُوقع فريستها في الشرك؟. هذا ما كانت تفكر به في هذا الوقت الليل.

كانت أشعة القمر قد اندفعت من النافذة، وأطل القمر من بعيد في هذه الليلة الصائفة. فكرت وفكرت، ثم قررت أن تبوح للقمر بمكنون رغبتها، واستحلفته بخالقه ألا يفتن عليها..... ومن مفارقات الزمن أن باح القمر بسرّها، وأعلم محروس بما كانت تفكر به تقريباً، وربما كان على علم بمغزى نظراتها، ومما تعانيه، فهو يلاحظ نوم سيده كل ليلة في وقت مبكر.

في الليلة التالية ارتدى سترة بلا أكمام وبنطلوناً من القماش الأبيض المتين، وجلس بجوار النار مظهراً كل مظاهر قوته العضلية، خرجت نوال، وقد خففت من ملابسها، وأظهرت كثيراً مما كانت تخفيه. تجرأ محروس، وأرسل نظراته نحو مفاتن جسدها النافرة، ولكنه ما زال غير متأكد مما يدور في

مخيلته. كان القمر في أوج اكتماله وأضواءه المبهرة تنعكس من وجنتيها البرونزيتين الممتلئتين، وتظهر تلك الرغبة المشتعلة في عينيها..

مرت لحظات من الصمت قطعته بسؤالها:

- كيف نتخلص من هذا الناموس الذي يملئ المكان؟!

كانت نظراتها تتفحص كل ملامح بنيانه العضلي وملامح وجهه، شاربه الكث، وشعرات ذقنه المتشابكة، وشعره المجعد الغزير، تحاول إخفاء بريق عينيها المنجذب نحو الشاب المكتمل الرجولة.

رد في ثقة:

- سوف تتعودين عليه فهو جزء من الصيف في الأرياف.

قالت في نبرات مرتجفة:

- وكيف تنام في غرفتك في هذا الحر؟

كانت دقات قلبه قد بدأت ترج أرجاء صدره وكأنها تُسابق موجات دمه المتسارع نحو وجهه؛ فشعر بسخونة تجتاح وجنتيه، إنه على بعد خطوات من أمر لم يكن يتخيله.

رد في ثقة مشوبة بالخوف:

- إنها غرفة رائعة الهواء يأتيها من كل الجهات، يمكنك إلقاء نظرة عليها، إن شئت!.

تحمّست، وقالت:

- تعال، لننظر ماذا تخفي في غرفتك؟.

تحركت نوال نحو غرفة الحارس، وما أن دخلا الغرفة حتى أغلق محروس الباب، وأقبل نحوها وقد تخلص من سترته وضمها إليه فاستسلمت بسهولة وأغمضت عينياها واندفعا في الظلام نحو تجربة الحرام..

وفي الصباح جاء العمال الصغار، ومحروس يتحرك في أرجاء المزرعة شاعراً بالزهو، تقترب منه نوال بين الحين والأخر ليسيرا معاً بين الحقول، وإذا شعرا بخلو المكان ربما أمسكت نوال بأصابعه، وربما قبلها بين المزروعات. أيام الأسبوع تسير ببطء فهي تنتظر يوم عودة العمال إلى أهاليهم؛ ليخلو لها المكان مع محروس الذي أشبع كثيراً من رغبتها في المرة الواحدة التي التقى بها فيها.

جاء الخميس وقضت نوال مع محروس ليلة أخرى في الحرام، وتكرر الأمر في اليوم التالي، وجاء السبت، وقرر الأسيوطي العودة إلى المدينة. أبدت نوال الاعتراض، سببته بأنها تشعر أن ذلك القصر الكبير في مدينة الواسطى ما هو إلا سجن تخشاه وتكرهه، وأنها شعرت بالراحة هنا في المزرعة، ولكن الزوج أصر على العودة.. بلا نقاش!

.....

الفصل الثاني

وبينما كانت سيارة رءوف الأسيوطي تدلف مسرعة داخل القصر في صباح ذلك السبت المزدحم بزوار مدينة الواسطى، خرج خليل عبد الواحد من وكالة الجمّال متوجهاً إلى محلج الأقطان في شمال المدينة. كانت إدارة المحلج الجديدة تتعمد التضييق على التجار الكبار؛ رغبة في أحكام سيطرة الدولة على نواحي الإنتاج والتوزيع. فقد فرضت قوانين صارمة على تداول القطن؛ فلم يعد هناك تجار للقطن الأبيض غير المحلوج، فقد أصبحت الحكومة تشتري كل القطن من المزارعين، وتقوم ببيعه لتجار أقطان التنجيد ومصانع الغزل والنسيج بالسعر الذي تفرضه، وغلظت عقوبات بيع القطن الخام أو نقله بين المحافظات، فلم يعد هناك مصدراً له سوى ما تسمح به إدارة المحلج التي احتاجت إلى نوع من التحايل للحصول على كميات منه. هنا كان لأفكار وعقلية خليل المنظمة دور كبير في ثبات مكانة الجمّال بين كل التجار، فقد كان يتفق مع بعض الأفراد بأسماء لشركات وهمية وبسجلات تجارية مزيفة على تقديم طلبات للحصول على طلبيات من القطن، ويقومون بإرسالها إلى مخازن الجمّال نظير عمولة متفق عليها، كما كان يقدم الإكراميات والهدايا لكبار المديرين في المحلج من أجل إخراج كميات من الأقطان بفواتير لأسماء وهمية لصالح وكالة الجمّال.

أصبح خليل من الزوار الدائمين للمحلج، وزادت علاقاته بجميع العاملين والمديرين به. حتى العمال والشيالين أصبحوا يفرحون بزياراته؛ لما يقدمه من إكراميات وأموال لا تنقطع. ودائماً يدعوهم إلى سهراته في مقهى مرجان بعد تناول العشاء في منزله، فقد عرف كيف يتعامل مع المديرين الجدد، وأصبحوا في جيبه، فلا خوف على تجارته، بل إنه استفاد من فسادهم؛ فأصبح يحصل على الأقطان بأسعار أقل مما يعرض.

لقد أصبح من رجال التجارة المعدودين في المركز وذا علاقات متينة بهم، وتشعب وتمدد مجال مصالحه مع كبار الموظفين والعسكريين، وشعر أن الدنيا فتحت له جناحيها، ورحبت به لتعوضه عن أيام الشقاء والحرمان. وزادت المبيعات، وزادت الأرباح في وكالة الجمّال.

كان ربيع العطار يزداد غيظاً كلما شاهد هذا التوسع في تجارة الجمّال، وكان دائماً ما يفتعل المشكلات مع العمال المتواجدين في المخازن المقابلة لمحله. وكلما اشتكى العمال منه لرب العمل رد عليهم بضرورة التحمل والتعامل بصبر مع ربيع فهو جاهل ضعيف الإيمان، وكان يذكر دومًا أن ربيع هو من دله على هذا المكان وسبب النعمة التي يرفل فيها.. فرغم أنه تآمر مع التاجر الشامي، ولكن الله جعله سببًا لشراء الوكالة. ولم يكن ذلك رأي خليل، فقد كان يرى أن ربيع يحتاج إلى وقفة جادة؛ حتى لا يتمادى في أفعاله. ولكنه رضخ لرأي صهره.. واستسلم.

.....

بينما كان رءوف الأسيوطي مشغولاً ببعض الأعمال التي لا تعرف عنها نوال شيئاً، فهي لا تسمع إلا بعض الضحكات منه وبعض العبارات التي اعتادت سماعها من والدها عن الضباط والبشوات وأحياناً بعض الجمل باللغة الفرنسية خلال مكالماته العديدة، وفي كثير من الأحيان كان والدها هو المتصل يقضي بالساعات يتحدث إلى صهره حديثه المُكرر.

جلست متكورة في جانب من الصالة الفسيحة؛ فقد تذكرت تلك اللحظات التي اندفعت فيها خلف شيطانها، وكيف استسلمت لهذا الحارس الذي يعتبر خادماً لدى زوجها؟! يلومها صوت ضميرها بعنف: ما كان ينبغي لك أن تستجيبي لهذه الرغبة! كيف قبلت أن يعاشرك الحارس؟ ماذا لو عرف المقيمون بالقصر عن هذا؟ ماذا لو عرف زوجك؟! ماذا لو انتشر الخبر بين العمال؟!

قطع صوت الخادمة صوت ضميرها ، فقد دخلت تخبرها في هدوء:

- محروس حارس المزرعة بالخارج يطلب مقابلة الباشا يا ست هانم.

ارتبكت أكثر وأكثر، فقد اشتعلت نارها بمجرد سماع اسمه، وتناست لحظات الندم المنصرمة. دخل محروس مسرعاً وأقبل نحوها، ووضع يده الخشنة في يدها، وتمتم بكلمات لم تسمعها جيداً، ولكنها تعلم أنه يعبر عن شوقه إليها. ثم دخل على الباشا في مكتبه الذي يطل على الصالة، وربما شاهده وهو يصافح زوجته. انتهى لقاءه بالباشا بلا نتيجة كما كان بلا سبب سوى رؤية نوال.

زادت نار رغبتها اشتعالاً وأصبح الشوق للقاء المحرم ينتابها كل لحظة ولم تعد قادرة على تحمل هذه الرغبات الجارفة، وزوجها أصبح بلا قدرة تقريباً،

ففي مساء ذلك الأربعاء وبينما رءوف في مكتبه يقلب في مذكراته أقبلت عليه، وقالت بصوت جاد :

- رءوف، أريد أن أذهب إلى المزرعة غدًا، أرغب في زيارة هرم ميدوم فلم أشاهده عن قرب من قبل.

هز رأسه وسيجارته في فيه ورد بصوت خافت:

- لا بأس، ولكني لن يستطيع أن أذهب معك لدي بعض المشاغل الهامة في القاهرة غداً سأسافر بالقطار وسأعود بعد غد ؛ فيمكنك أن تذهبي مع ممدوح السائق، ومحروس هناك بالمزرعة سوف يساعدك فيما تريدين.

ابتسمت فهذا ما كانت تريد..!!

في اليوم التالي انتظرت حتى قبيل المساء للتأكد أن الحارس بمفرده في المزرعة، ومرة أخرى استسلمت وسلّمت، ونال الحارس منها، ونالت منه بلا خوف فهي بمفردها معه، والسائق نزل المدينة ليشتري بعض الأغراض. كانت نوال تزداد تعلقاً بالحارس كلما مرت الأيام، ولفت الأمر انتباه السائق العجوز. فبمجرد الوصول إلى المزرعة تطلب منه أن يتركها، ويذهب حيث شاء. وفي ذات مرة عاد السائق وتلفت في أرجاء السراي فلم يجد أحداً، وبينما يقترب من حجرة الحارس إذ سمع صوتاً أثار كل شكوكه؛ فاقترب من النافذة، ودقق النظر في غرفة الحارس بينما كان أخر ضوء للنهار في طريقه للرحيل؛ فكشف للرجل العجوز ما حجبه ظلامها، وإذا بسيدة القصر بين أحضان الحارس، وأثر النشوى يرتسم على أنات صوتها المبحوح. لقد صدمت المفاجأة ذلك السائق العجوز فعاد إلى السيارة، وكأنه لم يشاهد شيئاً،

و منع الكلام معها طوال الطريق، وفي اليوم التالي طلب من الباشا أن يعفيه من العمل فقد أصابه الكبر؛ فقد رافق الأسيوطي الكبير والصغير منذ عهد بعيد، ولم تعد لديه القدرة على التحكم في المِقود.

ظلت نوال بعيدة عن محروس لعدم وجود السائق، أحياناً ينتابها الندم والحسرة؛ فتتكور على ذلك المقعد في صالة القصر. وعندما تثور رغبتها تفكر أن تذهب إليه ماشية على الأقدام. ولكن ارتباط لقاءها به بغياب العمال الصغار في المزرعة أوجب عليها أن تنتظر حتى يكون لها سائق، ففكرت حيلة تقربها من محروس فأقبلت في ظهيرة يوم الأحد واقتربت من وجه زوجها وقالت في دلال:

- كل البنات اللاتي كنت التقي بهن في النادي كن يقدن السيارات فأنا لست أقل منهن؛ فأرغب في تعلم القيادة..!
- ولكن من سيعلمك؟!

اقتربت من وجهه أكثر ولفت يديها حول عنقه ولصقت شفتيها بجبينه، وقالت في صوت مبحوح:

- أنت يا حبيبي ، فأنا أريد تعلم قيادة السيارة لأتابع العمال في المزرعة، فأنا أريد شغل وقتي بأمر مفيد.
- حاضر، في الصباح سوف أعلمك قيادة السيارة .

شكرته كثيرا وبدأت في تعلم الإمساك بالمقود والتحكم في الغيارات ، ولم تمض أيام إلا وكانت على المقود متجهة إلى المزرعة في منتصف النهار

وصلت، وعندما شاهدها العمال أصابهم الذهول؛ فللمرة الأولى يشاهدون سيدة تقود سيارة. أما محروس فقد كانت فرحته ملء وجهه، وغروره يطير به أنها تعلقت به، ولولا ذالك ما كانت لتقود السيارة وتأتيه مرغمة.

.....

في مساء يوم الأربعاء جاءت سيارة كبيرة محملة بالقطن، ووقفت أمام مخزن الجمّال؛ فدبت نار الحقد المستعرة والغيرة القاتلة في قلب ربيع العطار وأولاده، وبدءوا في السباب للسائق والعمال ووجهوا سبابهم للجمّال، وهدّدوا بأنهم سيشعلون النار في السيارة بما فيها إذا لم تتحرك حالاً. حاول العمال تهدئتهم، ولكن ثورتهم كانت تزداد رغم أن الشارع شبه خال، فقد حلّ الليل، ولم يعد لتجارة العطارة مكان في هذا الوقت من اليوم. ومعظم مخازن ودكاكين الشارع أغلقت أبوابها منذ وقت طويل. فلا حجة لهذه الثورة.

أسرع أحد العمال إلى الجمّال، وأخبره الخبر؛ فخرج الرجل من وكالته التي كانت على وشك الإغلاق، وتوجه إلى المخزن؛ ليتعرف ما الأمر؟، وما إن اقترب حتى سمع أصوات ربيع وأبناءه -وقد حملوا العصي- تندفع نحوه بالسباب والشتائم وتهدد، وتتوعد.

قدّم الجمّال ابتسامته، وأقبل على ربيع في ودّ وقال:

- ماذا بك يا ربيع؟! اهدأ يا رجل وصل على النبي (صلى الله عليه وسلم)، نحن جيران وأهل.

وكان من الواضح أن ربيع وأولاده لا يريدون الرجعة عن تطاولهم وجهلهم وإظهار نار غيرتهم؛ فرد أحد أبناء ربيع وقد زادت حرارة غضبه :

- هذه السيارة لا بد أن تتحرك الآن من أمام الدكان ومن الشارع كله، وإلا سنحرقها بما تحتوي. ...

كبح الجمّال غضبه، وقال وهو يظهر ابتسامة المضطرب :

- إن شاء الله ستتحرك، ولكن بعدما يُنزل العمال ما تحمله. ودعني أتحدث مع والدك، فهو صديقي...

ولكن ربيع كان أكثر جهلاً وتهوراً من أبناءه، فإذا به يجري نحو السيارة، ويمسك بتلابيبه، ويضربه على وجهه؛ فاندفع العمال نحو ربيع وأولاده، وأشبعوهم ضربًا، وتجمع الناس يحاولون منع المشاجرة، وأقبل بعض رواد مقهى مرجان، ولكن الأمر تطور أكثر مما كان يتخيل ربيع وأولاده، فقد جاء كل عمال الجمّال من الوكالة، وتجمعوا حولهم، وكادوا يفتكون بهم.

وبينما كان خليل في طريقه إلى منزله إذا بأحد الأشخاص يصرخ به :

- ربيع العطار وأولاده اعتدوا على صهرك وأخيك!!

غابت رزانة عقله، واختفى هدوؤه الدائم، وأوقد الشيطان نار غضبه في رأسه؛ فاندفع نحو المخزن؛ فوجد الأمر كما ذُكر له، وبينما الجمّال يحاول أن يحجز عماله، ويبعدهم عن ربيع وأولاده إذا بربيع يحمل سكيناً، ويجري به نحو الجمّال. اندفع خليل نحوه ليمنعه، ولم يجد إلا ساقاً من حديد ملقاة على

الأرض فهوى بها على رأسه. فسقط بلا حرك، وهنا حلّ الصمت والذهول، ولم يجد خليل إلا الهرب مخرجاً من ذلك المكان. تجمّع الناس، واقبل أهل القتيل من كل أنحاء المدينة يتوعدون خليل وصهره، الذي احتمى بقوة الشرطة التي أقبلت بعد لحظات، واقتادت الجميع إلى المركز، ليبدأ التحقيق مع تركيز البحث على القاتل الهارب.

توجه خليل مسرعاً إلى بيته وقد حلّ الليل، دخل مرتجفاً مذعورًا، ونادى على صباح التي أقبلت تتلهف معرفة سبب انزعاجه، فلم تعتاد منه على هذا الصراخ، طلب منها أن تجمع ما تستطيع حمله؛ لأنهما سيغادران المدينة حالاً، فقد قتل ربيع العطار، وهو الآن مطلوب من الشرطة ومطلوب من أهل القتيل. لم تمانع الزوجة الطيبة، ولم تفكر طويلاً، وجمعت بعض ملابسها ومصاغها وتوجهت مع زوجها نحو محطة القطار يتخفيان في ظلال البيوت، وسارا بين الحارات الضيقة، وابتعدا كل البعد عن أعين الراصدين. الخوف يحيط بهما وخيالات أعمدة الإنارة القليلة تحولت إلى أشباح تطاردهما. وصلا إلى المحطة عبر تلك الساحة المهجورة جنوبها، والتي حولها القمر إلى بركة من الضوء الفضي، ونفى عنها ما حاكه خيال الخائفين من كونها ملتقى للأشباح ومرتع لخيالات عفاريت قتلى القطارات. لم يكن بالمحطة سوى بعض المسافرين الذين تجمعوا تحت المصباح الوحيد الملاصق لغرفة الناظر، بينما وقف هو وزوجته مختبئين بين أشجار الليمون وتين الشوك المتراصة بجوار برج المراقبة في الجهة الأخرى من المحطة، في انتظار أي قطار ينتشلهما من مستنقع الخوف والترقب الذي يتواجدان به.

وبينما كانت وجهة كل الهاربين من الثأر والخوف إلى الشمال نحو المدن الكبيرة كالقاهرة والإسكندرية، حيث يمكنهم الاختباء بين ملايين البشر وآلاف المساكن، لم يجد خليل إلا قطاراً وجهته الجنوب؛ فألقى بزوجته بداخله، ولحقها مسرعًا عندما بدأ القطار في التحرك.

تركت تلك الأحداث المدينة الساكنة في حزن وأسى، فقد توشحت تلك الوجوه الباسمة بالحزن، واندثرت الضحكات وسط هذا الغم العميم، وغابت مظاهر الاحتفال اليومية في قهوة مرجان، وغاب لحن الربابة المُعتاد بل أوشكت على الإغلاق بسبب قلة روادها.. وأجلت كل مظاهر الاحتفال بمولد الشيخ زارع المصلوب هذا العام، وأزيلت الزينات والسرادق المُقام بجوار المَقام.

لقد كان الحزن على هذا التاجر الكبير الذي طالما أعان الكثيرين، وساعد المحتاجين، وقدّم المعروف لمن يعرف ومن لا يعرف، وما آلت إليه حاله فبكت العيون، وانهمرت الدموع، وتمزقت الجوانح والأفئدة حسرة على حاله وحال تجارته، وصهره الذي أصبح هارباً مطاردًا مطلوباً في ثأر أوقعته الأيام في طريقه، وما سعى يومًا للاعتداء على أحد، وتضرعت قلوب المساكين الذين كانوا يعيشون على عطاياه إلى الله أن ينجيه من هذا الهول المفاجئ...

خشيت زوجة الجمّال من سُعار الثأر والرغبة في الانتقام التي تتملك عائلة العطار وخاصة أولاده الجهلاء؛ فقررت أن ترحل بأولادها إلى قريتهم الصغيرة؛ ليكونوا في حمى أعمامهم. جمعتهم جدتهم في حجرها وهي تبكي،

وتذكر كم حذرت ابنها من المدينة و لعنة التفريط في إرث الأجداد وعرق الآباء!

في المركز حاول المأمور مساعدة صديقه الجمّال، ولكن الجمّال أصرّ على أقواله أنه المسئول عما حدث وأن صهره إنما كان يدافع عنه، واستند إلى شهادة العمال وشهادة السائق، وجرت الأمور في ساحة القضاء بسرعة، ورغبة من السلطات لاحتواء الموقف وإظهار قوة الحكومة العسكرية، ولإثبات سيطرتها على كل شيء، فقد أمرت بتشميع وكالة الجمّال حتى إشعار أخر، وقُدم الجمّال واثنان من عماله و أحد أبناء العطار لمحكمة الجنايات، وحكم عليه حضورياً بالسجن عشر سنوات مع الشغل بتهمة التحريض على القتل، وعوقب أحد العمال بالحبس سنة والأخر بالحبس ستة أشهر، أما ابن العطار فقد حكم عليه بالسجن ثلاث سنوات؛ لأنه فقء عين أحد العمال، وقضت المحكمة على خليل غيابيًا بالسجن المؤبد بتهمة القتل العمد مع الأمر بسرعة ضبطه في أي مكان في بر مصر....

أصابت لعنة الدم أبناء العطار برغبة مُلحة في الثأر؛ ورفضوا كل وساطة لقبول الديّة، وأعلنوا عزمهم على الثأر، وبدئوا في البحث عن خليل في كل مكان يمكن أن يصل إليه. ونظراً لهذا الشغف بالقتل الذي أصابهم فزع إخوة خليل، وخافوا على حياتهم، فقد أورثوا حملاً ثقيلا وثأراً عاجلاً أو آجلاً قد يسترد من واحد فيهم إذا عجز خصومهم من الوصول إلى أخيهم الهارب؛ فتفرقوا في البلاد، بلا جَمعة أخرى. ولسان حالهم يقول: ما ذنبنا في هذا كله؟! إن ذلك الشخص الذي سن سنة الثأر في صعيد مصر، وأعطى أهل القتيل الحق في قتل من يعجبهم بدون النظر في دوافع القتل أو مقدمات

الحوادث، وبدون إسناد الأمر إلى القائمين عليه كالمحاكم وولي الأمر، لسوف يناله ذنب كل نفس أزهقت بلا حق في ثأر لم تكن طرفاً في صراعه.

.....

كانت نوال قد اعتادت على وجود محروس بحياتها، ولم يعد ذلك الضمير يخاطبها فقد قتلته بيديها من أجل إشباع رغباتها الشهوانية المتجددة، ولم تعد تشعر بالإهانة وهي تسقي الحارس رحيق شرفها وشرف زوجها، ولم تعد تجلس متكورة في ركن الصالة على ذلك الكرسي. ولم يكن القاضي -الذي شاخ فجأة- على علم بما يدور بين الحارس وزوجته، فقد اعتقد أنها تذهب للمزرعة من أجل متابعة العمال والتخلص من الملل، وحتى عندما كانت تتأخر ليلاً كان يظن أنها إنما تستمع بجو الريف الهادئ، لقد كانت غفلته وسلبيته دافعًا كبيراً لتماديها في هذا الإثم. ورغم أن الدلائل كلها كانت تشير إلى وجود هذه العلاقة الآثمة، فقد تغيرت منذ اليوم الأول لزيارتها للمزرعة فقد غاب مللها، ولم تعد تهتم بما كانت ترغب به منه، واستغنت عن سريره، وتبدّلت أحوال الحارس الذي أصبح يرفع صوته على سيده، ويتصرف كأنه مالك المزرعة، وكان العاملون بالمنزل على دراية بما يحدث فلا نار بدون دخان. وكيف لا؟، وهذه ليست ناراً فقط بل إنها سعير متأجج من الخيانة وانعدام الضمير والدناءة.

وبينما كان يجلس في مكتبة، تنتابه نوبات السعال المتقطع فيرتشف بعض رشفات القهوة، وهو يقلب في كتبه الفرنسية، ينظر على العلامات التي كان يضعها بداخلها بقلمه، وأسماء الفتيات الفرنسيات اللائي كان يلتقي بهن وهو

في باريس في أوج شبابه وقوته؛ فيبتسم تارة، ويمتعض تارة، ويتحسر تارة أخرى. دقت الساعة الحادية عشرة لتنبهه إلى شيء ما. نظر حوله، وخرج مندفعاً نحو البهو الفسيح. لا أحد الكل نيام، ما عدا عوض الخفير يجلس عند مدخل القصر. صرخ عليه بصوت أجهده الدخان والزمن.. فقد تذكر أن زوجته لم تعد من المزرعة حتى تلك الساعة. حضر عوض مسرعاً؛ فطلب منه أن يأتيه بسيارة أجرة؛ ليذهب إلى المزرعة في ميدوم ربما يكون خطر ما قد حل بزوجته، وربما تعطلت سيارتها في الطريق.

عاد عوض بعد دقائق، وأخبره أنه لم يجد سوى حنطور يقف في أخر شارع سعد زغلول، فقد تخطت الساعة الآن الحادية عشرة في هذه المدينة التي تخلو شوارعها من المارة بمجرد أن يصلّوا العشاء. أبدى رءوف باشا غضبه، ولكن ما الحيلة؟! لا وسيله الآن إلا ذلك الحنطور؛ الذي أصر سائقه على الحصول على جنيه سليم كأجرة لهذا المشوار البعيد، لم يبد الرجل اعتراضا وركب مستسلماً، بينما انشغل السائق بأغانيه التي يترنم بها فيحذف ويضيف ما يشاء من كلمات، وينشأ اللحن الذي يروق له.

بعدما تحرك الحنطور، وأصبح خارج المدينة تذكّر رءوف أنه كان يجب أن يصطحب الخفير معه، ولكن قال في نفسه:

- لا بأس، فمحروس موجود هناك.

كانت علامات القلق تبدو عليه؛ فطلب من سائق الحنطور أن يسرع عدة مرات. كان العربجي يُسرع خطا الحصان فقد كان ضوء القمر غير المكتمل يوضح الكثير من ملامح الطريق، توقف العربجي عن الغناء، وقال بصوت

تزاحمت معه أصوات الأجراس التي علقها على حصانه وصوت ارتطام إحدى العجلات بحجر كبير كاد أن يتسبب في انقلابه:

- يا باشا لماذا أنت قلق هكذا ؟ أليست في مزرعتك و معها سائقك؟!

رد رءوف في ضجر:

- اسكت ، إنها زوجتي وحدها، وليس معها سائق.

ردّ السائق بغير اكتراث:

- طيب!!

وبعد خطوتين توجه إلى رءوف باشا وقال:

- أهي في مثل سنك؟ يا باشا، أم صغيرة؟
- وما مناسبة هذا السؤال؟

رد في تهكم:

- لو كانت في مثل سنك فلا تخف عليها سوف تعود في سلام، الخوف أن تكون صغيرة، فأولاد الحرام على هذا الطريق كثيرون. ..

زاد قلقه بعد سماع تلك الكلمات، وطلب من العربجي أن يُكمل طريقه في صمت. وكلما اقترب من مدخل المزرعة، ولم يجد أثر للسيارة تزداد مخاوفه، و لم يبق إلا أمل واحد أن تكون ما زالت هنا، ولم تغادر. كانت عبارة: "أولاد

الحرام هنا كثيرون" تتردد في أرجاء عقله؛ فتزيد من توتره. توقف الحنطور في مدخل المزرعة نظر رءوف فوجد سيارته تلمع تحت ضوء القمر الخافت قريبًا من غرفة الحارس، فاطمئن قليلًا، ولكن طمأنينته لن تكتمل حتى يجدها.

تحرك ببطء وخوف وترقب، وهو يتمنّى ألا يشاهد المشهد الذي خطر بباله فجأة، لكنها الفاجعة فقد شاهد زوجته عارية تماماً بين أحضان أحد أولاد الحرام هؤلاء، وللأسف كان الحارس الذي ظنه أميناً على ماله وعرضه، وقد أتيح له التأكد مما يفعلان، وهما لا يشعران بوجوده خلف النافذة . دارت في رأسه كل الأفكار، وفكر في كل ما يمكن أن يفعله...!!، ولكنه اختار الحل الذي لا يسبب له مشكلة أو فضيحة، أو يعرضه لخطر، انسحب ببطء، وركب مع العربجي وأمره أن يعود به من حيث أتى. وبينما حاول العربجي الفضولي أن يسأل، فسمع صوتاً مختنقًا بالتوتر والغضب يصرخ به: اسكت، لا تنطق كلمة واحدة.

جاءت نوال لا تظهر عليها سوى علامات السرور، فقد نالت اليوم قسطاً كبيراً من المتعة ولم تكن راغبة في مفارقة محروس. وجدت زوجها على سريره نائماً أو متناوماً، وقفت مبتسمة بجوار النافذة وأشعلت سيجارة، وهي تضع أطراف أظافرها على شفتيها، وتحسست صدرها وهي تبتسم، ربما تذكرت كيف كان محروس يلهو به؟!!. مرت تلك الليلة على القاضي العجوز كأنها يوم القيامة، ونيران الإحساس بالإهانة تزفر في جنبات روحه المذبوحة، وفي الصباح طلب منها أن تحزم حقائبها، وتحمل كل ملابسها ومصاغها، وكل متعلقاتها لا تبقي منها شيئاً؛ فسوف يذهبان إلى القاهرة في زيارة ربما تطول؛ فقد قرر أن يعود إلى طبيبه الدكتور صبري ابانوب؛ فقد

عادت الآم الصدر إليه مرة أخرى، وربما يحتاج إلى السفر للخارج للفحص والعلاج. وعندما وصلت إلى بيت والدها أخبرها أنها طالق، وسوف تصلها كل مستحقاتها في أقرب وقت.

وكعادته لم يبد أسبابًا للطلاق، ولم يتحدث إلى أحد بما كان، حتى الدكتور ابانوب لم يقم بزيارته، وعاد أخر النهار إلى قصره بمدينة الواسطى. وفي صباح اليوم التالي أرسل إلى عمّ (ممدوح) سائقه القديم، وطلب منه أن يصاحبه بالسيارة في هذا المشوار فقط. وبالفعل جاء الرجل في منتصف النهار، وجلس في غرفة الحراس حيث كان يجلس دائمًا، فقد أحس بأن الأسيوطي قد اصطدم بواقع زوجته مع حارس مزرعته، وعندما أقبل الليل ركبا السيارة، وتحركا نحو منطقة (السحّارة) المطلة على جبل (أبو صير)، وسأل عن مسكن عباس الأحمر، فدله أحد الشباب على عشته في حضن الجبل.

كان عباس الأحمر في بداية عقده الرابع، فَقَدَ أولاده الثلاثة عندما أشعلت (مبروكة) زعيمة لصوص المواشي بمنطقة (الغروب) النار في البيت الذي كانوا يقيمون به انتقاماً منه لسرقته بعض مواشيها. ولحسن حظه أو لسوء حظه فقد نجا من الحريق؛ فلم يكن متواجداً، وبقيت اللوعة على أولاده تحرق قلبه، ولم يعد يأبه بأي شيء في الحياة، وامتهن القتل، وتوحش في إجرامه. فقد ذهب إلى بيت مبروكة في وضح النهار، ونادى عليها:

- أخرجي يا مبروكة، أنا عباس الأحمر الذي قتلتي أولاده..!!

فخرجت ممسكة ببندقيتها وهي تبتسم فأمطرها برصاصتين من بندقية روسية في قلبها أمام الناس كافة، ثم هرول نحو حقول القصب واختفى لفترة وتحول بعدها إلى سفاح يقتل نظير المال. لم يطل اللقاء بينهما فقد اتفق معه على قتل محروس مقابل مائتي جنيه، أخذها عباس مقدماً، عباس كان مشهورًا في كل مركز الواسطى كقاتل محترف، فكان من يعجز عن الأخذ بثأره بنفسه يدفع له ليقوم بالأمر، ومن يرغب في التخلص من أي شخص يدفع له لينفذ رغبته.

لا تستطيع الشرطة الاقتراب من عشته بجوار هذا الجبل الممتد إلى مالا نهاية. الرمل المتحرك بفعل الرياح غطى الطريق الواصل إلى كوخه. ذات مرة اتُهم في قضية سرقة وجاء أحد الضباط إلى عشته تلك فلم يجده، فعنف زوجته، فردت عليه؛ فلطمها؛ فسقطت على الأرض، وأسقطت حملها. يقول الناس: أنه لم يرجع إلى بيته إلا بعدما قتل الضابط وزوجته وأولاده. كان مطلوباً في العديد من القضايا، ولكن من يجرأ على الاقتراب منه؟! حُكم عليه بالسجن عدة مرات، ولكنه كل مرة كان يهرب من السجن، أو ربما كان يتم تهريبه. فأمثاله ربما تستعين بهم السلطات للتخلص من المعارضين والأشقياء، ويكونون بالنسبة لها بلا ديّة. في إحدى مرات سجنه كان أحد النزلاء شاذاً جنسياً يعتليه السجناء، وكان من بني سويف فعيّر النزلاء عباس به؛ لأنه ابن بلده ومن محافظته. فما كان من عباس إلا أن خنقه في حمام السجن.

كان الاتفاق أن تتم العلمية ليلة الجمعة حيث يكون محروس وحده في المزرعة، ولا بد أن تظهر على أنها محاولة للسرقة. فرءوف باشا يرغب في أن ينتهي الأمر في هدوء.

دخن عباس الكثير من الحشيش منذ بداية المساء، وتداخلات لديه الحقائق بالآراء والواقع بالخيال والأربعاء بالخميس؛ فركب فرسه في ليلة اكتمل بدرها، وتوجه إلى حيث تقع مزرعة الأسيوطي وترك الفرس بعيداً عن مدخلها بعدة أمتار، ودخل المزرعة، وتوجه حيث أرشده الباشا إلى غرفة الحارس، وجده غارقاً في نومه، وباب غرفته على مصراعيه في هذا الليل المغلف بحرارة النهار.

أطلق عباس عليه رصاصتين كانتا كفيلتين بإنهاء حياته وبإيقاظ العمال النائمين تحت شجرة التوت؛ فقاموا مذعورين، وجروا نحو الغرفة فوجدوا محروس مدرجاً في دمائه، وشاهدوا شبحاً يجري وسط المزروعات فتبعوه؛ فلم يستطع أن يزوغ منهم فظلوا في أثره، وظلّ عباس يجري قرابة الساعة، وهم خلفه حتى اقترب من مدخل مدينة الوسطى من جهة الغرب، فعبر ترعة الإبراهيمية قُبالة محطة السكك الحديدية، ونظر خلفه فوجد أشباحاً تتبعه؛ فاندفع إلى المحطة وسط مستنقع مليء بأعواد القصب والغاب، ووصل للرصيف حيث كان القطار المتوجه نحو الجنوب قد أطلق صفارته معلناً التحرك؛ فألقى بنفسه داخل القطار، ومن شدة ما وجد من تعب، والجهد الذي بذله وهو يجري هرباً، مع تأثير الحشيش فقدْ فَقَدَ الوعي، وظل مرمياً على أرضية القطار يظنه الراكبون نائمًا، وظنه أفراد العمل بالقطار من المجاذيب والمهابيل الذين تمتلئ بهم القطارات.

أما رءوف باشا فقد كتم أحزانه، ولم يُظهر أية ردة فعل تجاه مقتل حارس المزرعة. بل ظلّ صامتًا كحاله دائمًا، وفي مساء اليوم التالي بينما حطّت قدمه أرض القصر سقط مغشياً عليه، ولم يفق من غيبوبته إلا بشلل تام أصاب أطرافه، وجلس على كرسي متحرك لا يقدر على الكلام.

.....

الفصل الثالث

وفي القطار المظلم حيث اختلط ظلام الليل وظلام الخوف الذي ينتاب النفوس المضطربة والموجوعة بأوجاع شتى، كانت أصوات النيام كأنها مستنقع مليء بالضفادع في أوقات التزاوج. يشاركها صوت ذلك الطفل الذي يئن بصوت مبحوح فقد أخذ الصراخ كثيراً منه ، فهو يبكي منذ أن تحرك القطار من القاهرة، وأمه النوبية لا تدري ما سبب بكاءه؟!، ولم تفلح محاولتها لإسكاته فتركته يبح، وانشغلت بأخته التي أفسدت كل ما حولها ببرازها المتناثر على ملابسها وعلى الأرض.

يمر أحد الباعة معه بعض المعجنات المحشوة بالعجوة وأخرى بلا شيء، ينادي على الجائعين : قُرص ، قُرص بالعجوة والسمسم..

ولكن القليل من ركاب هذا القطار الفقير في كل ما يحتوي يمتلك ثمن هذه القُرص من العجين أو غيره. فهؤلاء العائدون إلى الصعيد منهم من عاد بمرضه الذي لم يجد له علاجاً في مستشفى امتلأت عنابره وجنباته بل طرقاته بالمرضى الفقراء من كل بر مصر، فعاد يائسًا ينتظر الموت، ومنهم من يحمل بين طيات نفسه ألماً وحسرةً على تلك الظروف التي أخرجته من أرضه ليذهب إلى القاهرة، ليعمل بواباً يمسح بلاط السلالم والمداخل، ويحمل الخضروات للسيدات في ذلة وانكسار، ويعود اليوم إلى أهله في زيارة قصيرة ربما لن تستغرق يومين أو ثلاثة، يقضي معظمها في هذا القطار اللعين، ومنهم الطالب الأزهري بعمامته وجبته وقفطانه، والطالب الجامعي

الفقير، ومنهم العامل البسيط في مصانع الشمال التي حُرم الجنوب منها، وأصبح فرضاً على أبناءه أن يقطعوا مئات الكيلو مترات للحصول على الرزق أو العلم. كلهم من أصحاب الهموم. لم يركبوا هذا القطار الرخيص إلا للحاجة. فهذه النوافذ المكسورة والتي لا تحميهم من دفعات الغبار المتطاير على جانبي السكة الحديد، ولا تمنع عنهم برد الشتاء أو لهيب الصيف، وتلك المقاعد الصلبة التي تتعب من يجلس عليها أكثر من أن تريحه، وفي كثير من الأحيان ربما لا يجد هذا الكرسي الصلب؛ فيظل واقفاً من القاهرة إلى أسوان. فرغم الكثير من الوعود التي سمعوا بها، ولكن لا تزال معاناتهم لا تجد من يستمع إليها، وما زال هذا المستقبل المختلف بعيداً.. فمشاكلهم هي أخر اهتمامات القائمين على الأمر. إنهم مطالبون بالتحمل، ولكن إلى متى يمكنهم هذا التحمل؟!.

جلست صباح بجوار تلك النافذة التي أغلقت بالصاج لعدم وجود الزجاج، وجلس خليل في الجهة المقابلة لها يحاول أن يخفي وجهه، ولكن لم يخفيه؟! فالظلام في القطار قد صنع ساتراً أخفى كافة الملامح، ولم تعد تظهر إلا العيون اللامعة للمستيقظين، وبعض خطوط الضوء التي صنعتها أشعة القمر عبر فتحات النوافذ والأبواب. وبقايا شرار أحمر أنتجه اشتعال السجائر من بعض المسافرين. كانت صورة ربيع القتيل عالقة أمام عينيه، وصوت ضميره الغضّ يصرخ: لما فعلت ذلك؟!.

تنهمر دموعه في الظلام، وصباح بجواره تشعر بكل دمعة تذرفها عيناه اللتان أحبت فيهما الحياة، وعاشت في دفء نظراتهما. تُربّت على يديه، وهو يكتم صرخات تكاد تفجر ضلوعه. لم يكن يتصور أن تكون تلك النهاية. ألهذا الحد

يصبح الواقع أشد مرارة من الخيال؟! لماذا لم تشفع له دعوات أمه التي ماتت راضية عنه؟! لقد كان أخر دعائها في الدنيا له. هل أصابتهم عيون الحُسّاد؛ فأمطرتهم بوابل من الشر، بعدما كانوا يرفلون في الخير؟!. تزداد دموعه انهماراً وهو يفكر في ذلك الرجل الطيب الذي اصطفاه وزوجه ابنته، وأشركه في تجارته، ووثق علاقته بكل الكبار في المركز بل في المحافظة كلها، ماذا يُفعل به الآن؟ ربما يقتله أهل ربيع العطار! ربما يسجن إذا نجا من أهل القتيل! لماذا تخلّى عنه، وهرب.

- لا، لا لابد أن أرجع إلى الواسطى، لا ينبغي أن يدفع أحد غيري ثمن جريمتي.

يُصرح لزوجته في صوت تملئه الدموع، ويبدو عليه الإصرار، وتحاول صباح أن تهدأ روعه، تخاطبه في حب:

- لننتظر حتى تشرق الشمس، بعدما يتوقف القطار يُمكن أن نعود! النهار له عينان.

تخطى القطار حدود بني سويف، وقطع مسافات كبيرة. اختفت ملامح صباح عن عينيه لقد غاب عن الوجود، لقد نام وكأنه لم ينم من قبل!، والقطار في طريقه نحو المجهول، وعندما أشرقت الشمس كان القطار قد توقف في مدينة قفط. هنا نهاية الخط من يرغب في إكمال الطريق نحو الأقصر وأسون؛ فليستقل القطار القادم على الرصيف الثاني.

ينزلان في ترقب وخوف، ربما يجدان الجنود في انتظارهما! ربما أحد من أهل ربيع العطار يتبعهما. يتحركان ببطء، ويمران مع القادمين لا جنود ولا راصدين. لقد صنع خوفهما أشباحاً تطاردهما. في وسط الشارع المار أمام محطة القطار بينما يسيران وإذا بصباح تقاوم القيء، وتسقط على الأرض مغشياً عليها. ماذا يفعل في هذه البلاد الغريبة؟! يستوقف حنطورًا، ويطلب منه توصيله لأي مستشفى..

.....

ظلّ عباس الأحمر مهملاً في القطار، ومرت الساعات والساعات، وعندما أفاق من غيبوبته وجد نفسه في عربة قطار للركاب خاوية تقف بشكل منفرد، قد تآكلت كل جدرانها تقريبًا، وشغل الصدأ ما بقي من أجزاءها، وقطار للبضائع متوقف في الجهة الأخرى. يبدو أن أحدهم حمله وألقاه في هذه العربة المتوقفة في المحطة عندما وصلوا لنهاية الخط، وربما استيقظ وانتقل إليها.إنه لا يدري ماذا حدث؟ ظن أنه لا يزال في محطة الواسطى؛ فتملكه الخوف. إنه لأول مره يشعر بهذا الفزع!. سحب جسمه المنهك باتجاه النافذة المتهالكة، ونظر في حذر يميناً وشمالاً. المحطة خاوية أين ذهب الخلق؟!. فراغ يطبق عليه من الجانبين. إنه الآن بين ماضغي الخوف والجوع الذي حلّ فجأة. الرجل صاحب القلب الفولاذي الذي يخشاه كل العتاة في شمال الصعيد يصيبه الذعر من مجموعة شباب صغار (شوية عيال).....ولكنها ليست محطة الواسطى!!، إنه يعرف كل جنباتها ومعالمها، فكم ركب منها القطار وهو يتوجه شمالاً أو جنوباً!، وكم أُوقف عليها بالساعات في انتظار القطار

الخاص بالمساجين الذين يتم ترحيلهم عبره!. فإذا لم تكن هذه هي محطة الواسطى .فأين أنا؟! سأل نفسه في صمت.

نزل إلى الرصيف الممتد الخالي من كل المظاهر والعلامات، وما زال قلقه يحرك خطواته وجوعه يعتصر أمعاءه، تحسس جيوبه فلم يجدها، الواضح أن غيبوبته استغرقت أياماً، وليست ساعات كما كان يظن. نظر حوله لعله يجد من البشر أحداً، فلمح شاباً ذا سترة زرقاء لامعة تشبه ملابس السجناء، ولكن هل هناك سجن مفتوح الجنبات هكذا؟! فتذكر أن عمال السكك الحديدية يرتدون سترات تشبه ملابس السجناء. كان ذلك الشاب يحمل دفترًا كبيراً تأبطه في غير اكتراث، ودخل غرفة من الغرف القليلة الموجودة على الرصيف. تثاقلت خطوات عباس وهو يسير ببطء نحو تلك الغرفة، وعندما وقف أمام بابها نظر إليه العامل، وقال في ضجر:

- اذهب من هنا!

ارتسمت علامات الدهشة على وجهه وقال في نفسه:

- ماذا يقول هذا الرجل؟! أيقال لي: اذهب من هنا؟!

كرر العامل كلماته، وأضاف عليها :

- غور من هنا!

ما زالت الدهشة تعقد لسانه عن الكلام، ألهذا الحد أصبح الناس لا يهابون عباس الأحمر؟!!

نظر إلى العامل، وقال في صوت منهك :

- أين نحن؟!
- أين نحن !! نحن في قفط ، قالها العامل بلهجته الصعيدية (جفط). بجيم مرققة.
- قفط !، وفي أي محافظة تقع قفط هذه؟
- إنها في قنا..!!

ابتسم عباس وكأنه غير مستوعب لما حدث، وقال في تودد:

- أنا جائع وغريب. فهل يمكن أن أجد أي طعام ؟!

ردّ العامل بابتسامة حانية :

- تفضّل!

وأخرج رغيفاً من العيش الشمسي وقطعة من الجبن المنزلي وثمرة طماطم، وناولهم له، وبجوار مدخل الغرفة على الرصيف المفروش بالأتربة جلس يتناول الطعام، وهو سارح بخياله في هذا الذي يحدث، إن أخر ما يذكره ذلك الحارس الذي أطلق عليه النار في المزرعة. أكان ذلك يوم الخميس أم الأربعاء؟!، لا يتذكر سوى هؤلاء الشباب الذين طاردوه، والغاب والمستنقع و..... لا يتذكر. وبعدما انتهى من طعامه تلفت عن مصدر للمياه فوجد دورة المياه خلف هذه الغرفة.

دخل إلى صنبورها الذي تتدفق منه المياه بلا توقف. نظر عباس إلى وجهه في تلك المرآة المكسورة الشاحبة المثبتة بالجبس أعلى الصنبور؛ فعرف لماذا كان العامل يطلب منه أن يذهب؟ إن ملامحه تحولت إلى ملامح المهابيل والمجاذيب، وغطت كل أشكال الاتساخ ملابسه وشعره ووجهه أيضاً. مكث عباس لساعات في هذه المحطة المهجورة، وقد غسل ملابسه، وجلس مرتدياً سرواله فقط حتى جفّت بقيتها. ارتدى جلبابه الأسود الذي امتلأ بثقوب صنعها ذلك الشرار المتطايرة من سجائره المحشوة بالحشيش. وعمامته البيضاء التي قد فقدت بياضها، وأصبحت كخرقة لتنظيف الأرض.

لم يكن لديه قرار معين. هل يعود إلى بني سويف؟ أم يحاول أن يجد مكاناً هنا؟ ربما يستطيع أن يعيش في هدوء! ربما ساقه القدر إلى هنا ليجد الراحة قليلاً. وعندما اقترب من غرفة العامل؛ ليشكره، ويودعه سقط مغشياً عليه مرة أخرى.

.....

في مستشفى قفط العام أخبر الطبيب صباح أنها حامل. نظرات الحيرة والفرح تطغى على حوار خليل وزوجته، فوسط كل هذا الألم يطل عليهما خبر طالما انتظراه، ولكنها مشيئة الله أن يكون هذا الجنين في هذه الظروف العصيبة، ربما أرسله الله ليُسري عنهما!!....

بعدما استعادت صباح عافيتها، قررا ترك المستشفى، ولكن إلى أين؟ فلا مكان معلوم ولا عمل مضمون، وقرار العودة إلى الواسطى هل سينفذانه؟ أم

لا؟، ومستقبل هذا الجنين الذي يتكون في أحشاءها كيف سيكون إن عادا بالفعل؟! وماذا سيفعلان في هذه البلاد التي لا يعرفون عنها شيئاً؟!.

كل هذه الأفكار كانت تتصارع في رأسيهما وهما أمام باب المستشفى. الوقت يمر، والشمس في طريقها نحو البر الثاني ترغب في المبيت. والغريب أعمى ولو كان بصيرًا، قررا البحث عن غرفة في حانة أو فندق، ولكن هذه المدينة الصغيرة لا تعرف مثل هذه الأماكن، فنادراً ما يزورها أغراب، يقضيان الليل في الحديقة المشرفة على المستشفى، وفي الجانب الأخر مرقد العارف بالله سيدي (هشام الحجاج) حيث يتجمع المريدون في تلك الساحة الواسعة، يتوارى حزنهما وخوفهما خلف الطمأنينة المنبعثة من وجود هؤلاء الهائمين، وصوت المنشد وتمايل الموجودين بالساحة على ذلك اللحن الصوفي؛ فتنام صباح على رجله، ويغفل هو للحظات مستندًا إلى تلك الشجرة العتيقة المنتصبة وسط الحديقة. مع بزوغ الفجر تحركا نحو الشرق في شارع عريض يربط كل أحياء المدينة، يشبه شارع سعد زغلول في الواسطى لكنه ينتهي بالصحراء.

يقترب من أحد الرجال الجالسين على مقهى صغير بلا زبائن تقريباً، يسأله عن أقرب بلد هنا، فيجيبه الرجل:

- (نجع العكارمة) في وسط طريق (الجمّالة).

(وهو الطريق الرابط بين الوادي ومرفأ سفاجا حيث كان حجيج الصعيد يتخذونه في أثناء رحلتهم نحو الأماكن المقدّسة). ..سار الزوجان حتى اقتربا من البلدة الصغيرة التي تحيطها الأراضي الزراعية من ثلاث جهات

والصحراء من الجهة الشرقية، وتقترب بشدة من الجبال الراسية على البحر الأحمر، وقريباً من القرية وبجانب شاطئ ترعة صغيرة اجتهد خليل في جمع بعض فروع وأعواد الشجر الجافة، وأقام كوخاً ظلله ببعض العشب، وهيئت صباح أرضيته، ولما نال منهما التعب ناما في مكانهما حتى انتصف الليل. أيقظهما الجوع، وكان بحوزتهما بعض الطعام منذ الصباح؛ فأكلا في الظلام، وأكملا النوم حتى أشرق الصبح.

لفت وجودهما انتباه المارة من أهل القرية، وسمع خليل بعضهم يقول: لقد جاء العمال الذين سيحفرون مَخرّ السيل. كانت كلمة (مَخرّ) غريبة على مسامعه، ولكنه وجدها سببًا مقنعًا إذا سألهما أحد: لماذا تقيمان هنا؟ ولكن أحداً لم يسأل. اجتهدت صباح في تهيئة الكوخ، وأضافا إليه المزيد من الحطب، ونزل خليل إلى قاع الترعة، وأخرج الكثير من الطين ليغلق به الشقوق والثقوب بين البوص والعشب. وبعدما انتهيا من العمل توجه نحو النجع، واشترى بعض المستلزمات للحياة الجديدة في هذه الغربة التي يبدو أن أمدها سيطول...

عندما سقط عباس على الأرض أمام غرفة عامل المحطة أصابه الذعر، من هذا الغريب الذي جاء ليموت هنا!، ربما يُتهم بقتله! بينما هو في هذه الحيرة حضر زميله الذي سيستلم منه النوبتجية، ووضع يده على رقبة عباس، وقال: إنه مصاب بإغماءة فقط، اتصل بالإسعاف!. أقبل عامل الإسعاف بسيارة متهالكة لم تستطع أن تصعد إلى الرصيف، فقد توقفت عند المطلع، بعدما أخرجت ما داخلها سُحباً من الدخان المختلط برائحة السولار. طلب عامل الإسعاف من سعد عامل المحطة أن يساعده في حمل المريض، وركب معه

حتى تم إدخاله إلى الطبيب الذي أعطاه بعض الإبر والمحاليل، وبدأ عباس ينتبه. نظر إلى سعد، وقال:

- قفط مرة أخرى؟!

ضحك سعد وهو يقول:

- الواضح أنك نصيبي اليوم، لا تقلق فقد أخبرني الطبيب إنك بصحة جيدة، ولكنك تعرضت لإجهاد كبير تسبب لك في تلك الغيبوبة. استرح الآن وغدًا سوف أمر عليك.

جاء سعد في الغد كما وعد عباس، واصطحبه إلى بيته حيث كان يعيش مع والديه هو وزوجته وابنه الصغير. رحبت تلك الأسرة بهذا الغريب الذي لم يعرفوا اسمه بعد. أحضر له سعد جلباباً أزرقاً واسع الأكمام، وعمامة نظيفة، ولاسة كحلية منقوشة بنجوم صفراء وحمراء. سأله الوالد:

- بم نناديك يا ابن العم؟!
- عباس اسمي عباس، ومن بني سويف. جئت أبحث عن عمل في بلاد الله الواسعة.
- تبحث عن عمل هنا؟! الناس تسافر نحو الشمال للبحث عن عمل! .
- لقد سئمت من كل ما في الشمال!.

أحس سعد أن الغريب لا يريد أن يبوح بشيء؛ فأشار إلى والده أن يتوقف عن أسئلته، فتركه الوالد مع ضيفه، ودخل لينام.

أمضى الرجلان وقتاً طويلاً يتحدثان. احتل كلام سعد عن عمله بالمحطة، وما يشاهده من غرائب وعجائب من المسافرين، والحكايات التي ترويها ملامحهم وقصص الغائبين والعائدين. وقصص الأشباح التي تملأ تلك المحطة المنسية وحكاياته مع النوبتجية. لم يتحدث عباس كثيراً، فلم يتطرق إلى حياته بأي شكل إنما اختصر حديثه في تلك الساعات التي قضاها في محطة قفط .

وفي الصباح استأذن عباس من صاحب المنزل، وأراد أن يغادر ؛ فسأله سعد:

- إلى أين ؟

رد عباس في صوت مُجهد :

- أرض الله واسعة، ربما أجد عملاً في أي مكان.
- انتظر!، لدي صديق يعمل مقاول أنفار سوف نذهب إليه، ربما نجد لك عملاً خفيفاً يتناسب مع حالتك الصحية.
- لا بأس، ربما!

التقى سعد بصديقه المعلم (عبد الله) فأخبره أنهم من الصباح سوف يبدءون في حفر مخر للسيل في (نجع العكارمة) على طريق الجمّالة. تلفت عباس حوله؛ ففهم سعد أنه يفكر كيف سيقضي تلك الليلة حتى الصباح؟. فعرض

عليه أن يصاحبه إلى محطة القطار؛ فسوف يكون في النوبتجية في تلك الليلة، يمكنه أن يبيت بجواره.

طوال فترة وجود عباس في محطة القطار لم يكن يفكر إلا في حال سعد، هذه الطيبة وهذه المروءة من أين أتى بهما في هذا الزمن الغادر؟!، وهل فعلاً يفعل معه كل ذلك المعروف بلا مقابل؟!، ترى لو طلب أحدهم منه أن يقتله كما اعتاد أن يفعل، هل سيجرؤ على فعل ذلك بعدما أسدى إليه كل هذه المحبة دون سابق معرفة؟! وهل يا ترى كم واحد من عينة سعد هذا أزهق أرواحهم من قبل؟! وهل يستحق هؤلاء الطيبون الموت؟! لقد تداخلت كل تلك الأفكار برأسه، وربما أثرت على قراره بالبقاء في هذه البلاد التي لا يعرف أهلها إلا الخير والحب، هل يجب عليه أن يرحل؟!. فشيطانه وملائكتهم لا يمكن أن يجتمعوا في مكان واحد.

وفي الصباح كانت سيارة المعلم عبد الله تنتظره أمام محطة القطار، وتحركت جنوباً ثم انزوت شرقاً على طريق ترابي اختلط بالرمال القادمة من الجبل. توقفت السيارة على مقربة من كوخ خليل، الذي تعجب من وجود هذا العدد من الرجال على سطح هذه السيارة المكشوفة، ولكنه تذكر مخر السيل؛ فاقترب منهم وحياهم، وطلب من المعلم عبد الله أن يعمل مع هؤلاء العمال، فلم يمانع، وأوضح له أن الأجرة هي خمسون قرشاً في اليوم.

شرح المهندس المسئول عن المشروع طريقة العمل، فعليهم حفر مخراً للسيل. وهو يشبه الترعة ولكنها جافة، تتجمع بها المياه في حالة حدوث السيول. من أول الجبل حتى النيل ثم يقومون بتكسية جوانبه بالأحجار. ومدة

العمل من أول مايو حتى نهاية أكتوبر حيث بداية موسم السيول التي تنهمر على تلك المناطق.

كان عمل عباس مقصوراً على حمل الأوراق والخرائط وكتابة أسماء العمال كل يوم، وأجرته ضعف أجرتهم. بينما كان خليل يرفع الأتربة من باطن المخر إلى السطح مسافة خمسة أمتار لأعلى. كانت ملامح خليل مألوفة لدى عباس. فهو على يقين أنه يعرفه، أو ربما التقى به ذات مرة، ولكن أين التقى به؟! لم يكن متأكداً. هو فقط ينتظر الفرصة حتى يلتقي به على إنفراد، ربما يكون صاحب قصة تشبه قصته.

في تلك الأثناء كانت الدولة قد بدأت في حصر السكان في تلك المناطق النائية، وعمل مستخرجات رسمية كشهادات الميلاد وبطاقات الهوية. وعندما وصلت تلك اللجنة إلى نجع العكارمة أعلنوا عنها عن طريق الخفر الذين جمعوا الناس صفين، أحدهم للرجال والآخر للنساء. يمر الفرد على الكاتب ليملي اسمه ثلاثياً ومكان مولده، وبجوار الكاتب الطبيب الذي يحدد السن بالتقريب، وبجواره عسكري يأخذ بصماته، عدا الأطفال اكتفوا بتسجيل أسمائهم وأعمارهم.

سجل خليل نفسه باسم: عبد المنعم محمد أبو دسوقي، وسُجلت صباح باسم: رابحة وزير مهني. كلاهما من مواليد قفط. فقد أخفى خليل اسمه واسم زوجته منذ حضوره، وعرفهما سكان النجع باسم عبد المنعم ورابحة. أما عباس فلم يغير سوى اسم الأب، فُعرف بعباس مرزوق من سكان قفط. استمر عمل اللجنة ثلاثة أيام، ثم عادوا من حيث أتوا..

نظرات عباس المتتابعة أربكت عبد المنعم، ولكنه استمر في عمله. ربما يكون خوفه هو ما صنع تلك الشكوك التي تناثرت بداخله. كلما شاهد غريبًا يظن أنه جاء في طلبه. حاول أن يطمئن نفسه، فما من شخص في مركز الواسطى قد يظن أن هناك بلد تسمى نجع العكارمة، وما من شخص ربما تسوقه خطواته إلى هنا!! وأخفى تلك الشكوك تجاه عباس، ولم يخبر بها زوجته خشية أن يقلقها.

تعددت الأكواخ بجوار كوخه الذي اتسع، وأضيفت إليه مساحة كافية لأن يكون بيتًا، واتفق أصحاب الأكواخ على تنظيمها لتكون امتداداً للنجع. وبدأت صباح وزوجها في صناعة الطوب اللبن لبناء منزل يكون في انتظار الضيف القادم بعد عدة أشهر، كان لجارتها (أم جابر) دور كبير في تعليمها طريقة صناعة الطوب وطريقة بناءه. تلك السيدة الصعيدية الأرملة التي توفي زوجها بمرض الربو منذ سنوات، وجرفت السيول العاتية منزلها المتهالك في مدخل القرية الشرقي العام الفائت؛ فقررت أن تقيم بعيداً عن تلك المنطقة . كان أولادها الثلاثة جابر، وناصر، وصابر يعملون في حمل التراب من باطن المخر مع عبد المنعم، وكانوا يصنعون معه الطوب نهاية اليوم، وبعد يومين أو ثلاثة يجف الطين، ويقومون بمعاونته في بنائه. واستمروا قرابة الشهرين في هذا العمل حتى اقترب المنزل من التمام. وعندما احتاج عبد المنعم للمال من أجل شراء غطاء للسقف وباب خشبي للمنزل، وأدوات مناسبة للطبخ، وموقد جاز، وأغطية وفرش؛ قرر بيع المصاغ الذي كانت تحتفظ به زوجته.

بينما كان عباس يفكر كثيراً في شأن عبد المنعم هذا، يحاول أن يجمع كل الوجوه التي شاهدها في بني سويف وخارجها، وتلك التي التقى بها في السجن ربما تتطابق صورة أحدها مع ملامحه، ولكن ذاكرته تأبى أن تجمّع أجزاء الصورة. لماذا لا يتكلم معه ؟!! ولكن طبيعة عمله لا تجعله يختلط بالعمال كثيراً، فبمجرد جمع الأسماء في بداية النهار يعود لمظلة المهندس، ويجلس بجواره، وينتظر أوامر المعلم عبد الله. عبد المنعم قليل الكلام نادراً ما لمحه يتحدث. ربما لو تكلم لاستطاع أن يتعرف على شخصه من خلال لهجته، ولكنه يلتزم الصمت كلما اقتربت خطوات عباس منه، فحتى الاسم يخبره به أحد هؤلاء الصبية الثلاثة الذين لا يفارقونه.

انتهز عباس فرصة طلب المهندس مجموعة من العمال لنقل مظلته وكراسيه؛ فناداه هو واثنين آخرين، وعندما اقترب منه سأله :

- من أي البلاد يا ابن عم ؟

رد عبد المنعم في صوت مضطرب:

- من هنا، من النجع!

زادت شكوك عباس إلى حد اليقين أن الرجل غريب، وربما يكون فعلاً التقي به؛ فقد نطق الجيم مرققة بعكس كل أهالي قفط وما حولها. (كثير من أهالي الواسطى ينطقون الجيم مرققه عكس أبناء الصعيد، تشبه لهجتهم لجهة القاهريين).

كان سؤال عباس له عن موطنه سبيلاً لأن يغيب بأفكاره عن الحاضرين، فظلت نظرات عباس ملازمة لمخيلته، وكلما تذكر كلماته كلما أصابه الرعب. من هذا الرجل؟! أهو مبعوث الموت الذي أرسلته أسرة العطار؟! أم هو مرشد للشرطة ؟! لم يكحل النوم عينيه تلك الليلة، وظلت أفكاره تطارده، وعادت صورة ربيع القتيل تتمثل أمام عينيه، وتذكر أخوته، وما يمكن أن يكون قد حلّ بهم، وكيف طاوعته نفسه وتركهم يواجهون آثار فعلته، وصهره الذي لا يعلم مصيره، وتذكر صباح المستلقية بجواره وجنينها الذي أطبقت عليه الأحزان قبل أن يولد. كادت أفكاره تقضي عليه، ولم يجد سوى دموعه منفرجًا لهذا الأسى الذي تملكه؛ فأيقظت تلك الدموع المصحوبة بلوعة مكتومة زوجته التي احتضنت رأسه، فهي تشعر بما يفكر به.

في ذلك الصباح قرر ألا يذهب للعمل، ولكنه تذكر الخمسين قرشاً التي يتقاضها أُجرة، فهي دخلهم الوحيد. سار مع رفاقه الصغار حتى وصلوا إلى حيث يجلس المعلم عبد الله ومعه عباس الذي ما زالت نظراته الفاحصة تربكه، وهذه المرة اقترب منه، وأحب أن يختبر ظنونه فهمس في أذنه:

- لا تخف، لن يعرف أحد شيئاً!

كاد الخوف يخلع قلبه وارتبك كثيراً، وتغير لونه، ولم يعد قادراً على العمل؛ فألقى بالمقطف على الأرض، وقرر العودة إلى المنزل وسط ذهول جيرانه الثلاثة. وهو في طريقة آفلا إلى بيته يسير الخطوة، وينظر خلفه ربما أقبل عباس ببندقيته في أية لحظة، يشعر بأنفاسه خلفه؛ يتوقف، وينظر في حذر للخلف، لا أحد!

وصل إلى البيت مصفر الوجه متصبب الجبين. وكانت عودته في هذا الوقت سببًا لقلق زوجته وسبب حيرة أكبر من أم جابر القابعة بجوار المجرى المائي، تطعم معزتها التي أصابها الوهن من حرارة الشمس المتأججة رغم أننا في أول النهار، في هذا الوقت من شهر أغسطس.

وفي نبرات مرتجفة متقطعة قال لزوجته:

- لا بد أن نرحل! هناك من يعرفنا، وربما يكون في طريقه إلينا!.

نظرت إليه في حنان، وقالت:

- يا روح الروح، ما قدّره الله سيكون، فلما الخوف؟! اهدأ، وأخبرني بما حدث!،

فقص عليها قصة عباس. ابتسمت، وقالت:

- لو كان الرجل يعرفك كما تقول، ويريد إيذاءك كما تظن، فلماذا لم يفعل ما جاء من أجله؟ تعامل معه بطبيعتك، ولا تظهر ارتباكك، وتعرّف على ما يضمره. ربما يكون عوناً لنا في هذه البلاد الغريبة.

كانت كلمات الزوجة العاقلة كالماء البارد على ظمأ الهجير، فارتاحت نفسه، وقرر ألا يخاف من عباس. وفي صباح اليوم التالي كان عبد المنعم بين صفوف الرجال المشمرين في حفر مخر السيل، وهذه المرة لم يُخف عينيه عن نظرات عباس الذي اقترب منه وقد تأكد أن الرجل صاحب قصة، فقال في همس:

- بالأمس تركت العمل بدون استئذان، لكني لم أشطب اسمك وعددتك من الحاضرين، لا بد أن تتكلم! لا تخف! أشار عبد المنعم بالإيجاب.

كانت لحظات تسليم الأجرة أخر الأسبوع، عندما انزوى عبد المنعم وعباس خلف الكشك الخشبي المعد لحفظ الأوراق والخرائط وأمتعة المهندس. بعيداً عن عيون العمال والمشرفين.

قال عبد المنعم في ثقة:

- أنا هارب من السجن. هل يخصك هذا الأمر في شيء؟
- لا، لا بالمرة، ملامحك ليست غريبة عليّ، من أي البلاد أنت؟
- ربما ليس من المهم أن تعرف الآن!
- تمام، جيد جداً، لا تقلق، أنا مثلك!
- أنت الآخر هارب من السجن ؟!!
- لا لا، أقصد أني أيضا غريب لست من هنا! من قرية تابعة لمركز الواسطى.

كانت صيحات جابر وإخوته عليه قد قطعت حواره مع عباس فرجع إلى بيته، وقد أحس أنه تخلص من جزء كبير من قلقه، ولكن أفكاره ازدادت شطحاً خاصة عندما تذكر كلمات عباس: (من مركز الواسطى)، فربما يتعرف على شخصه، وربما يلتقي بأحدهم ويخبره عنه، ولكنه قال لنفسه مطمئناً أو محاولاً إبعاد خوفه:

- ولكن لا أحد يعرف اسمي الحقيقي. فالكل يعرف عبد المنعم، ولا أحد يعرف خليل، كما أن عباس لم يتعرف عليّ؛ فارتاحت نفسه قليلاً، وأقبل على النوم بعدما كان قد نسي شكله.

كانت أيام العمل في مجرى مخر السيل قد شارفت على الانتهاء، فلم يعد متبقيًا إلا الانتهاء من بعض التكاسي الحجرية على جانبي المجرى. أقبل عباس نحوه، وقال في تودد:

- ربما نلتقي مرة أخرى يا عبد المنعم، ألا ترغب في إخباري باسمك الحقيقي؟! ومن أي البلاد أنت؟ فاسم عبد المنعم ليس اسمك، أظنه كذلك!

رد في هدوء وثقة:

- عندما نلتقي مرة أخرى سوف أخبرك باسمي الحقيقي. وعن موطني.

عاد عباس مع المعلم عبد الله إلى قفط، ومع قدوم السيول تتوقف أعمال المعلم عبد الله في شغل التكاسي. لكن عباس استطاب العمل ورضي بهذا الهدوء الذي ينعم به، لكن الدنيا لا تريد له أن يرتاح! فظل بضعة أيام في الغرفة التي استأجرها في بيت أحد الصيادين من أهل قفط، وعندما وجده بلا عمل أشار عليه أن يعمل معه في اصطياد السمك من النيل، فالرجل بلا أولاد ذكور، وفي حاجة إلى من يعاونه، وافق عباس بلا تردد، ومرت أيام، ولكنه شعر بالتعب الشديد جراء هذا العمل الشاق طوال اليوم. فالرجلان يستيقظان قبل الفجر، ويستمران في التجديف وسط هذا الموج الهادر حتى المساء، والناتج كمية من السمك لا تكفي سوى مصاريف الصياد وبناته، فترك العمل معه،

وظل بضعة أيام في الغرفة منهكاً من التجديف. ولما نفدت أمواله، خرج من الغرفة، ولم يكن أمامه إلا سعد عامل السكة الحديد فتوجه إليه.

كانت تلك الطيبة الممزوجة بالشهامة في شخص سعد دافعًا لعباس أن يشعر بقيمة الطيبين في الحياة، وأن الله جعلهم مهبطاً لرحمته على خلقه، فكيف تكون الحياة بلا هؤلاء الذين لا يعرفون إلا الخير؟!. فلما حكى لصديقه عن توقف العمل لدى المعلم عبد الله وتعبه من العمل مع الصياد؛ رشحه سعد لأحد تجار الغلال الذي كان في حاجة إلى كاتب لحصر بضاعته. وحدد أجرته ريالين في اليوم (أربعون قرشًا). هل ستكفي تلك القروش طعامه وشرابه ودخانه وإيجار غرفته؟!. حاول عباس أن يدبر أموره بها، ولكنها لم تكن كافيه لشراء ما يحتاجه طوال اليوم. فلم يكن لديه حلول إلا أن يسرق من دُرج الغلاّل. ولما اكتشف الغلاّل سرقاته طرده من العمل، فلم يجرأ على العودة إلى سعد مرة أخرى.

كانت كل خطواته في قفط بلا وجهة يسير في الشوارع المتربة؛ لعله يجد ما يكفي طعامه فلا يجد. إن الرجل الذي تربى على مزاولة الإجرام، وتشربت خلاياه بكل إثم في طريقه نحو العودة لما كان عليه، ولكن هذه المرة في مكان بعيد عن مركز الواسطى.

اتخذ من الطريق الواصل بين قفط وقنا وكرًا للسطو على المارين. فتارة يحصل على أموال وتارة على طعام، وربما تصادف وجود الحشيش - الذي كان قد نسيه- مع أحد ضحاياه فعاد إلى إدمانه، وأصبح يشتريه عندما يعجز عن الحصول عليه مجاناً. وتعددت البلاغات حول عمليات السطو تلك؛ مما

أجبر الحكومة أن تعين دورية سيارة تمر طوال الليل والنهار على الطريق؛ فتسببت في توقف نشاطه وعودة الجوع والحاجة الملحة للحشيش مرة أخرى. ذات مرة حاول السطو على سيدة كانت تحمل قُفة وبجوارها ابنها الصغير، وكاد أن يقع في قبضة الشرطة، ولكنه أفلت في أخر لحظة وفر هارباً وسط حقول القصب.

.....

كان عبد المنعم قد انتقل للعمل في أحد مصانع الطوب الذي أنشئه أحد القادمين من أسوان، بالقرب من النيل جنوب نجع العكارمة. وكان لجيرانه الشباب دور كبير في تنمية موهبته في صناعة الطوب، فقد أصبح من أمهر صناعه، فاعتمد عليه صاحب المصنع في مراقبة العمال الذين يقومون بتشكيله قبل حرقه؛ فزادت أجرته، وشعر أن هذا الرزق للمولود الذي حلّ للدنيا منذ أيام.

كانت فرحة رابحة بابنها محمود - الذي أسمته على اسم جده (محمود الجمّال)- لا توصف، فقد شعرت أن جذورهم قد انبتت مرة أخرى فروعاً غضة غير تلك التي قصفها الزمن، وشعرت أن محمود هو حلقة الوصل بين الماضي المتقطع والمستقبل القادم. فهو البُرعم الأخضر الجديد من تلك الشجرة التي دثّر الزمن كل أغصانها بتربة الأحزان، وإذا بها تنبت هذا النبت في مكان ربما لم تتخيل ملامحه حتى في أحلامها، وبالنسبة لزوجها فقد شعر الآن أنه لم يعد وحيداً بل هو عائلة كاملة، أصبحت قادرة على التجدد

والتواجد، وشعر أن هناك من يقف في ظهره، فلا خوف بعد اليوم. فاندفع في العمل بلا توان، يحاول أن يوفر كل ما تحتاجه أسرته في كل الأوقات.

كان العمل في مصنع الطوب قد استهوى العديد من أبناء نجع العكارمة ونجع البارود، وبدأت حركة الحياة تدب في تلك القرى المنسية بين طيات الأحداث العظام التي مرت على مصر في ذلك الزمن. فما زالت بوادر التغيير المرتقب بعيدة عن تلك الأماكن المتناثرة في أرجاء الصعيد. فلا كهرباء، ولا مدارس، ولا صحة ولا علاج. فأقرب مكان يمكن أن تشاهد فيه تلك المظاهر هو مركز قفط .

وقد ساهم وجود المصنع في تغيير شكل المباني في النجع، فقد أصبح القادرون يقيمون بيوتهم الجديدة بالطوب الأحمر، ولكنهم تناسوا أنهم يفقدون أراضيهم الخصبة، التي تتحول تربتها إلى مادة خام لصناعة الحجر الأحمر الصناعي. ولكن في ظل الجهل بقيمة تلك التربة، فقد أمتد الأمر إلى القرى المجاورة التي تسابق أصحاب الأراضي فيها إلى بيع تلك الطبقة الخصبة لصاحب مصنع الطوب. لقد باعوا المستقبل قبل الحاضر، وهم يبيعون تلك التربة التي جاد بها النهر العظيم، و لن يعطيهم غيرها فقد بدأ السد يحجم حركته وامتداده داخل تلك الفيافي الممتدة.

ووفر العمل في المصنع مصدراً مناسباً للدخل لعبد المنعم وأسرته، فقد أصبح أكثر خبرة وكفاءة في الإشراف على عمليات صناعة وحرق الطوب، وراقت له تلك الجيرة الطيبة، وتلك القلوب التي تفيض بالحب والشفقة والرغبة في الخير بلا مقابل.

وفي ليلة من ليالي شهر نوفمبر حيث أرسل الشتاء طلائع عنفوانه على هذه البلاد، رغم أننا ما زلنا في فصل الخريف. فمنذ المساء والطبيعة تعلن نفيرها، فالضوء سار برقاً يخطف الأبصار، والصوت أصبح رعداً يجلجل القلوب، والسماء حبلى بماء غزير غلفته بتلك السحب المتراكمة، والتي تتدافع نحو الجبل الشرقي السامق، فبمجرد اصطدامها به تُسقط ماءً منهمراً يندفع نحو الغرب جارفاً كل ما يقابله الصخور، والجحور، والبيوت، والحقول، وبقايا النباتات الجافة المتناثرة في الغيطان .وينشر الموت والخوف والفزع والهلاك والحيات والعقارب التي يحملها من ذلك الجبل القاسي.

الإحساس بالخوف والترقب يجتاح كل سكان نجع العكارمة. يحتضنون الأطفال وكأنهم يحتمون بهؤلاء الصغار من خوفهم من هذا الغول الذي مد أذرعه نحوهم، ولكن أملهم الآن أصبح معلقاً بمخر السيل لعله ينفعهم في مواجهة الخطر القادم من قِبل الجبل الشرقي. وعبد المنعم وزوجته في بيتهم تتساقط عليهم قطرات المطر من السقف ممزوجة بغبار وآثار دخان متراكم منذ وقت طويل، فتسقط بقعاً صفراء تلون ما تسقط عليه.

وبالفعل لم يخيب مخر السيل ظن هؤلاء البسطاء الذين ربطوا مصيرهم به، فاتجهت مياه السيول نحو المخر، ومنه اتخذت طريقها إلى النيل سرباً، ومرت الليلة في سلام على سكان النجع، ولم تترك الأمطار سوى الكثير من الطين الذي غطى شوارعهم القليلة، وتعكراً في ماء الترعة المارة وسط البيوت بما اختلط به من مخلفات السيول، وبعض المياه التي تجمعت في البرك والمستنقعات وداخل بعض البيوت.

بينما اندفعت مياه السيول تلك حيث يوجد مصنع الطوب، فجرفت كل ما وجدته المصنع بكل مكوناته، ومعداته، وطوبه المحروق وغير المحروق، وصاحب المصنع أيضًا جرفته السيول مع بعض العمال الذين كانوا يبيتون معه.

ذهب عبد المنعم والعمال في الصباح فهالهم ما شاهدوا. كل ما بقي من المصنع مجرد بعض الأحجار، وجزء من المدخنة التي تهدمت، وبقايا بعض المازوت طافية على سطح برك المياه الراكدة. جلس العمال فوق الحطام تذرف دموعهم على صاحب المصنع وزملائهم الذين عايشوهم، وتعودوا على وجودهم معهم، وعلى هذا السبيل نحو الرزق الذي تقطّع، وحالهم يقول: من لنا غيرك يا الله؟!.

تفرقت وجهتهم القادمة فمنهم من اتجه نحو الشمال ليعمل بالقاهرة والإسكندرية، ومنهم من اتجه إلى الأقصر وقنا، ومنهم من اتجه بعد موسم السيول إلى العمل في المناجم الموجودة في الشرق حيث جبال البحر الأحمر، واتجه عبد المنعم مع هؤلاء، فلا يمكنه أن يتجه نحو القاهرة فعيون عائلة العطّار له بالمرصاد، ولا يمكنه التنقل بين الأقصر وقنا فربما يراه أحدهم.

كان منجم حجر الملح أو حجر البارود كما يطلقون عليه، والقريب من نجع البارود والذي تستخدم مادته في صناعة مسحوق البارود في المتفجرات قد أشرفت عليه الدولة، وبدأت في إعادة تشغيله، ولكن العمل به محفوف بالمخاطر، فيمكن أن تفقد حياتك في أية لحظة ربما ينهار الجبل، وربما ينفجر البارود، وربما تلدغك حية أو عقرب، ولكن المضطر لا يملك

الاختيار. كان عبد المنعم يقطع تلك المسافة بين بيته و المنجم ذهاباً وإياباً، فيعود بعد يوم العمل منهكاً؛ فيلقي بنفسه على الحصير البالي، لا يخفف عنه سوى تلك النظرة الحانية من هذه الزوجة الجميلة الباسمة، وصوت الرضيع الذي يبعث فيه شيئاً من الأمل، وتلك الجيرة الحسنة مع أم جابر وأولادها الضاحكين.

يقضون معهم أوقات السمر، يستمعون لحكايات أم جابر مع زوجها الفقري، كما كانت تصفه دائماً، وتذكر لهم أيام صباها، وكيف كانت جميلة يتهافت عليها الشبان، وتحكي في مرح مشوب بالخجل حول لياليها معه، وكيف كان يحبها؟!، ويحضر لها الحلاوة الطحينية في كل إجازة له من العمل. حيث كان يعمل خفيراً في معبد الأقصر، ودومًا تختم حديثها بعبارة: "اللهم ارحمه، مات بالربو من كثرة الغبار الذي استنشقه وهو واقف في المعبد، والدخان المعسل الذي كان يدخنه"...

.....

ضاقت قفط على عباس فبدأ في الخروج للبلاد المجاورة يسرق، ويخطف ليعيش. فتارة يقيم في البراهمة، وتارة يتواجد في بئر عنبر، وتارة في الشيخية حتى وصل نشاطه إلى الأقصر. فكلما احتاج إلى الطعام والمال اندفع نحو خروف تركه أصحابه بجوار المنزل فيحمله بين يديه، ويجري ليبيعه بأي ثمن، وتارة يسرق الحبوب من الأجران، وتارة يسطو على بيت يسرق بعض متاعه ليبيعه، وعندما يحل الليل يدلف إلى أية زاوية، أو فسحة مقام سيدي(أبي الحجاج الأقصري) يمكث فيها حتى الصباح. كان الخوف والفزع

ينتابانه كلما همّ بالسفر نحو الشمال، بل أصبحت رؤية القطار تصيبه بالرعب، فالرجل الذي هز عرش أعتا المجرمين في شمال الصعيد يرتعد بلا سبب، ويخاف بلا مبرر. ربما ابتلاه الله بهذا الخوف، وربما يخفي له القدر ما لم يظنه في هذه البلاد. كانت أحلامه المفزعة تجتاح لياليه كلما رقد، فصورة أبناءه الذين أحرقتهم مبروكة لا تفارقه، يقول لنفسه: لعله ذنب ذلك الطفل الذي أغرقته في ماء الزير!!..

فقد خرج ذات ليله بقصد السرقة، ودخل منزلاً؛ ليستولي على ما فيه، فسمع صوت طفل يبكي بجوار أمه، فخشي أن يوقظ بكاءه أهل البيت؛ فحمل الطفل، ووضعه في الزير المملوء بالماء، فمات غريقاً، وعندما عاد إلى بيته وجد مبروكة قد أحرقت أولاده الثلاثة. إن قتله لها لم يشف غليله بعد، إنه يتمنى أن تخرج فيقتلها ألف مرة .

وبينما يجلس على مقهى بجوار المَقام سمع أحدهم يتكلم عن منجم الذهب الموجود في منطقة قريبة من سفاجا على ساحل البحر، وسمع من شاب بينهم أنه يرغب في الذهاب للعمل هناك، فاقترب منه، وأعلن عن رغبته في رفقته، فلم يمانع الشاب، بل رحب بذلك، وانطلقا في الصباح سوياً حيث يُستخرج الذهب.

ربما كان حلم الوصول إلى الذهب يراود الكثير من الناس، ولكن عباس شاهده بعينيه، الخواجات يستخرجون الذهب بشكل يومي تحمله تلك السيارة المصفحة وتتجه به نحو الشمال، بينما أصحابه الأصليون محرومون من رؤيته. وظيفتهم تفتيت الأحجار بمعاولهم، أما الآلة التي تخرج الذهب من تلك

الصخور يعمل عليها عامل أجنبي، ويشرف عليه مهندس أجنبي، وأبناء الوطن يكتفون بخدمة من يسرقهم تحت مرأى ومسمع من السلطات.

لم تكن الشركة التي تستخرج الذهب من هذا المنجم ومن يديرونها يختلفون عن عباس فكلهم لصوص وقتلة، ولكنهم لصوص يسرقون في العلن، ويقتلون الناس باليأس، أما هو فلا بد أن يسرق في الخفاء، ويقتل بالسلاح، هو مطارد من السلطات أما هُم فتحميهم تلك السلطات. بدأ عباس يمارس عمله في تقطيع الصخور بهذا المعول الثقيل، وربما يُكلف بحمل الصخور نحو الآلة التي تفتته. لقد كان الأجر الذي يحصل عليه أضعاف ما كان يعطيه له المعلم عبد الله؛ فشعر بالراحة حيث وجد المأكل والمشرب والمأوى، فهم يقيمون في المنجم طوال الوقت، ومن يرغب في النزول إلى بيته فهناك يومان أجازة طوال الشهر، وبما أنه بلا أسرة، وبلا أهل؛ فقد ظلّ بالمنجم، وأصبح على دراية بما يقوله المهندسون، وعرف الكثير من أسرار هذا العمل وهذا المكان.

كان صاحب الشركة التي تقوم بالتنقيب عن الذهب خواجة فرنسي، شيد قصراً من الحجر محاطاً بسور متوسط الارتفاع قريبًا من المنجم ومن ساحل البحر؛ يقيم به، وكل ليلة يحفل بزواره من المهندسين والمشرفين الأجانب. أما أبناء الوطن فلا يمكنهم الاقتراب منه. كانت نوازع عباس الإجرامية تتدافع في عقله بصورة كبيرة، كلما شاهد تلك السيارة المصفحة التي تتحرك في نهاية كل يوم محملة بالذهب الخام، لم تكن دوافع عباس الوطنية والغيرة على خيرات البلد التي تُنهب، إنما رغبته مشاركة هؤلاء اللصوص. كيف يسرقون وحدهم وهو بينهم؟! فكر تكرراً أن يَكمُن لتلك السيارة، ويسطو عليها، ولكنه يخاف؛ فالقوة الموجودة بها أكبر بكثير من قدراته، كما ترافق

السيارة قوة من حرس الحدود، فلا طاقة له بهم. فهو في حاجة إلى رجال ليعاونوه على تنفيذ ما يفكر به. ولكن أين هم هؤلاء الرجال الذين يمكنه الوثوق بهم؟!!

في أحيان كثيرة يطرد تلك الأفكار، ويقول لنفسه: أنا أنعم بالهدوء والراحة فما الذي يدفعني نحو المخاطرة والعودة للتخفي والخوف؟!

ولكن جذور الإجرام المتشعبة بنفسه تأبى أن تستكين، وكل يوم تزداد تشعباً حتى أنها بدأت تطغى على هذا التفكير العاقل. فأخذ يراقب السيارة كل مساء بعد انتهاء العمل. يتخفى بين الجبال ليرصد طريقها، ويراقب من يركبون بها. فهم لا يراهم أحد من الموجودين، ولا يعرف أحد عددهم، ولا تسليحهم، وبعد خمسمائة متر من موقع المنجم ترافقها قوة حرس الحدود إلى مكانها المجهول. وعندما علم أن طريقه نحوها مسدود؛ فكر في فكرة أخرى..

كانت فكرته الدخول إلى حيث يتم استخلاص الذهب، إلى ذلك المكان المجهول للعاملين بالمنجم من المصريين، فانتهز يوم الأجازة حيث لا يوجد بالمنجم إلا الحراس وهو، وتوجه نحو الآلة التي لا يظهر منها سوى هذا السير الدوار حيث يضعون الصخور لتدخل إليها.

أخذ يزحف على السير العريض حتى وصل إلى سكاكين التقطيع التي كادت أن تمزقه، فلو لفت تلك الآلة لفة واحدة فلن يبقي من عظمه ولا لحمه شيء. وقف أمامها مشدوها، ولكنه لم يجد الذهب بل وجد التراب؛ فهمّ بالخروج بعدما أحس بخيبة أمل كبيرة، وإذا بأحد الحراس يقف على رأسه رافعا بندقيته، التفت إليه عباس، وحاول أن يخطف البندقية لكن يبدو أن قواه قد

أصابها الوهن، ولم يعد يُحسن القتال، وأحدثت تلك المعركة الصغيرة جلبة كبيرة في الغرفة المنيعة المعزولة؛ فأقبل الحراس، وأمسكوا به...

كانت نظرات الخوف تملأ عينيه فهو يخشى السجن، وخاصة هذه المرة. فالتوصية ستكون من هؤلاء الخواجات؛ فبالتالي سينال أضعاف ما يستحق من العقاب. فالدولة حريصة على إرضائهم. استعطف أحد الحراس لما رآه تبدو عليه ملامح الطيبة؛ فأقنع زملائه بأن يتركوا عباس لعشرتهم به، وأن يذهب من هنا، وألا يعود إلى المنجم مرة أخرى، ومن جانبهم قرروا ألا يخبروا أحداً بما كان، فربما أضيروا إذا علمت الشركة أن عباس استطاع الدخول إلى غرفة استخلاص الذهب.

.....

وفي منجم البارود كان عبد المنعم يحاول إصلاح ذلك المعول الذي فارق قضيبه الخشبي الصلب، وأقبلت السيارات الكبيرة التي تحمل ملح البارود لتتجه به نحو الشمال أيضاً. فكل خيرات الجنوب يتم نقلها إليه بلا تفكير في أهل هذا الجنوب المحروم. كانت السيارات ذات أشكال مختلفة، وكلها من نوعية السيارات النقل الكبيرة. وبينما حاول عبد المنعم تثبيت القضيب بمسمار من الحديد، توقف في فزع، لقد شاهد الأسطى (سيد) سائق النقل، إنه يعرفه، لقد كان ينقل لهم القطن من المحلج إلى وكالة الجمّال بالواسطى.

تحرك عبد المنعم بين الصخور في خوف وترقب حتى ابتعد عن المنجم، وعاد سريعاً إلى البيت يلهث، وأخبر زوجته بالخبر. وظل في البيت لأيام بحجة المرض، يخاف الخروج. فصورة ربيع القتيل عادت تطارده، وتتمثل

أمام عينيه، وعادت لوعته على صهره وإخوته وما آلوا إليه، وعادت دموعه تسكن مقلتيه مرة أخرى، ولم يخرج من بيته إلا بعدما أخبره جابر بإغلاق الحكومة للمنجم مرة أخرى فقد اقترب موعد السيول.

كانت السيول هذا العام قد أقبلت بقوة غير معتادة تجرف كل ما تواجهه، فلم تُبق من الزرع أو الممتلكات شيئًا، فمخر السيل قد حمى البيوت، ولكنه لم يكن بمقدوره حماية الحقول، فقد دمُرت بما تحتوي، وقضت السيول على كل مصادر دخلهم. فأخذت الشدة الناس فلا غلال، ولا زرع، ولم يبق أمام الرجال إلا أن يخرجوا من النجع نحو الشمال أو نحو الأقصر وقنا بحثاً عن مصدر للرزق إن أرادوا الحياة لهم ولصغارهم. ولكن عبد المنعم المطارد كيف يخرج من بيته؟! تجمعت عليه الأحزان والهموم، وشعر بعجزه أمام تلك الخطوب المتوالية، ولم يخفف عنه سوى هذه الابتسامة الحانية من هذا الوجه الباسم وجه رابحة وصوت الطفل، وما تجود به أم جابر عليهم من سعي أبنائها الشباب، لكن هل يظل كالعجزة في الدار ينتظر العطف؟!

.....

كان عباس شغوفًا بفكرة امتلاك الذهب، وطمع فيما يتم تحميله في تلك السيارة المصفحة، فظلّ قريباً من المنجم، يتنقل بين الجبال، ويرصد كل تحركات الحراس والقوة التي تحمي المنجم، وطريق ذهاب وعودة السيارة. يريد معرفة عدد الرجال الذين يتواجدون بها؛ حتى يحدد كم سيحتاج من الرجال لتنفيذ مخططه؟!...كانت أعمال المنجم في طريقها للتوقف؛ فقد

أُخطروا بموعد السيول، فبدئوا في جمع المعدات والأدوات، فتبخّر حلم عباس للوصول إلى الذهب.

وبينما هو في أحد الكهوف القريبة من المنجم حلّت السيول تزلزل ذلك الجبل الذي يحتمي به؛ فظل لعدة أيام محصوراً يعاني الجوع والبرد. فخطرت في باله فكرة أن يسرق قصر الخواجة صاحب المنجم، ولكنه يخشى الحراس؛ ففكر في شخص يمكنه الاستعانة به؛ فأطلت صورة عبد المنعم الذي التقى به في نجع العكارمة عندما كان يعمل في حصر أسماء عمال الحفر في مخر السيل؛ فاندفع نحو النجع يبحث عن عبد المنعم فكلاهما غريب، وكلاهما مطارد.

في هذا الوقت من شهر ديسمبر حيث الليل الطويل يلف الكون، وتلك النسمات شديدة البرودة تتسلل نحو هذا المصباح الذي تراقصت شعلته محدثة ضوءاً مضطرباً، كان عبد المنعم مستلقياً بجوار زوجته يبحث عن لحظات نُعاس، فحاجة أسرته للمال وإحساسه بالعجز أبعدتا النوم عن عينيه، سمع حواراً بين أم جابر وابنها صابر يعلن فيه رفضه لما تعطيه أمه لذلك الرجل الذي ينام في بيته بلا عمل وبلا سبب. يصرخ في وجهها وهي تتوسل إليه أن يكف عن حديثه، ولكن الفتى لم يسكت.

وفي تلك البيوت البسيطة التي لا تحجب جدرانها شيئاً؛ تصبح الأصوات مسموعة بين الجيران، فلا أسرار تقريباً. حاولت الأم سد حلقه بيدها، لكنه استمر في كلامه:

- هل ننفق على رجل ارتضى أن ينام طوال النهار والليل بلا سبب ولا علة.

- يا ولد، أخرس عيب، عمك عبد المنعم مريض بمرض فت في عضده فلا يقوى على حمل المعول، وغدًا سيفرج الله شدته.

- أين هذا المرض وتلك الشدة يا أمي؟ إنه يجلس طوال النهار على شاطئ الترعة يمص القصب، لن تعطيه مليماً بعد اليوم. ها أنا قد حذرتك..!!

اختفى النوم تماماً من عيني عبد المنعم ، ومع الفجر خرج من بيته هائمًا على وجهه بلا وجهة تدور به الدنيا، ألهذا الحد أصبحت زمانه يعاقبه؟ ألهذا الحد أضحى عالة يسمع الإهانة موجهة إليه؟!. والشاب محق فهو لا يعرف شيئاً! فقرر أن يعمل بأي شيء وفي أي مكان حتى لو عرّض نفسه للخطر. وبينما يسير في الطريق خارجاً من النجع متجهاً نحو قفط إذا بعباس قادم على الطريق يتلصص يبحث عنه...

كان عباس على يقين أن عبد المنعم سيعاونه، فربما كانت معرفته بقصة هروبه من السجن أداة ضغط لإجباره إذا رفض.. لكنه لم يرفض!، بل كانت الحاجة دافعة له أن يطلب منه التنفيذ في حالاً.

طلب منه عباس التروي ليومين يكون قد أعد العدة للعمل، وراقب القصر، وتعرف على عدد الحراس، وبعد يومين عاد عباس معلناً خطته للسطو على قصر الخواجة.

قال عبد المنعم مذكّراً لشريكه :

- ولكن هذه الليلة تُصادف اكتمال القمر!!ألا ترى خطورة في ذلك؟!

فقال عباس بثقة اللص المحترف :

- هذا أنسب وقت، فلن يظن أحد أن اللصوص قد يهجمون والقمر في أوج تمامه.

تحرك الرجلان مع بداية الليل البارد، ووصلا إلى القصر بعد ما يزيد عن ساعتين من المشي السريع، وكانت المفاجأة!.. فلم يجدا أحداً فلا حراس ولا خفر بالقصر؛ ففتحا خزانة الخواجة، واستوليا على ما بها من ذهب خام وأموال لم يتمكنا من حصر ها، وجمعا كل ما يمكن حمله من هذا الكنز المفتوح، وخرجا في سلام. لقد ظن الرجلان أن الدنيا عادت تفتح لهما ذراعيها. وسارا حتى وصلا إلى المنطقة الرملية بين النجعين، وجلسا يستريحان، ويقتسمان الكنز...

الفصل الرابع

مرت الليلة طويلة على رابحة التي لم تتعود على غياب زوجها، وأشرق الصبح، ولم يحضر، ومر اليوم واليومان ولا جديد. كانت دقات قلبها تزلزل كيانها المتهالك من الحزن، تكاد روحها أن تنفطر، تسأل في جزع: أين أنت يا روح الروح؟ أتتركني في تلك البلاد البعيدة غريبة؟!.. ربما ذهب للعمل في مصر أو الأقصر..بهذه الكلمات حاولت أم جابر وبعض النسوة من الجيران طمأنتها، لكن ظنونها امتزجت بالخوف؛ ربما وصلت إليه عيون الراصدين من عائلة العطار، ربما قبُض عليه. لا يمكنها أن تحكي ظنونها، فلا أحد يعرف قصتهما، ولن تفضح سرها بين الجيران المشفقين عليها.

مرت أيام وشهور وسنون والغائب لا خبر، ولا دليل. مرت الأيام كئيبة حزينة خالية من الفرحة ليس بها إلا الهم والخوف الممزوج بتلك النظرات اللائمة من كثير من أهل النجع، وكان عليها أن تواجه الحياة، وتسعى إلى تربية الطفل في هذه البيئة الغريبة، فلم تيأس، وظلت تعمل مع النسوة في الحقول، وفي صناعة الطوب اللبِن، وتجمع من قُوتِها، لتضمن له الحياة، وألحقته بكُتّاب النجع؛ فحفظ أجزاءً من القرآن، وتعلم القراءة والكتابة والحساب.

وما إن تخطى حدود الطفولة حتى بدأ في العمل مع جابر وناصر وصابر يتنقل من مكان إلى مكان داخل النجع والقرى القريبة. كانت ملامح الفتى شديدة التقارب من جده الجمّال، فكان ذا شارب عريض ويدين عريضتين

بشكل يلفت النظر تشيران إلى الكرم والجود، فكان يفيض بما لديه من قوة على الناس؛ فيساعد كل من يحتاجه، ولا ينتظر المقابل. ينادونه عند حساب القراريط والأسهم؛ فهو بارع في الحساب، يجيد الجمع والضرب وقياس الأراضي والبيوت. وأحيانا يؤمهم في الصلاة فقد كان عذب الصوت جميل القراءة...

.....

بعد فترة من الزمن أقبل عباس نحو نجع البارود حيث كان يطلب مكانًا هادئاً قريبًا من المناجم؛ فاشترى من الأراضي الكثير، وأقام في مدخل النجع بيتاً من طابقين، أحضر مهندسين وعمالاً من (أسيوط) لبنائه وزخرفته، وجعل الجرن الذي يجمع فيه محاصيله أمام هذا البيت؛ ليتمكن من الإشراف عليه، وأصبح من أعيان النجع. أمواله لا حصر لها، ونقوده تعجز الرجال عن عدها. لا يقدر أحد أن يرد له كلمة، كلما أراد أن يشتري أرضًا من صاحبها ورفض؛ يضيق عليه حتى يبيعها. كل رجال النجع ونساءه يعملون في حقوله. لقد صار صاحب سطوة وجاه. الكثيرون أوذوا جراء جبروته وقسوة قلبه. والكثيرون يستفيدون من العمل لديه، ولكن كانت قلوب الناس ممتلئة بالحنق عليه جراء أفعاله، كان سُمّاره من عِلية القوم، يتم دعوتهم من قفط ،وقنا، والأقصر، وبعض أعيان النجع ونجع العكارمة. تودد لرجال الحكومة، وحصل على فوائد جمّة نظير إكراميات وأموال كانت تُدفع لهم. كان يرغب أن تعطيه الدولة حق الانتفاع بمنجم حجر البارود، وقدّم الكثير من الرشاوى من أجل ذلك، لكن الحكومة لا ترغب في إعادة تشغيله، فقرر شراء الأراضي القريبة من المنجم.

.....

كان فايز السَلَمي البقال الوحيد في نجع العكارمة ونجع البارود، ومتعهد التموين بكلتا البلدتين في حاجة إلى مَن يحسب له حساباته، ويضبط له أوراقه؛ فاستعان بمحمود الذي اتفق معه على أجر لهذا العمل سبعة جنيهات كل أسبوع..

كانت قمر بنت البقال أجمل بنات النجع. جمالها يخطف الأنظار، وصوتها تشغف به الأذان، الكل يطلب ودها، ولكن قلبها تعلق بالفتى الغريب(كما كانوا يطلقون على محمود) وكان على علم بذلك. فبمجرد دخوله إلى بقاله والدها تظل بجواره، تحضر له ما يطلب ومالا يطلب، تلّمح له بحبها في دلال وخجل. في أوقات الراحة تطلب منه أن يعلمها القراءة والكتابة، لم يكن ناظرها موجهاً لما تتعلمه، بقدر ما وجهته نحو عينيه الخجولتين.

إنه أيضاً يحبها، ولا ينكر كم يشتاق إليها، ولا ينسى كيف كانت لوعته ذلك الوقت الذي سافرت فيه إلى قنا؟، وكيف مرت عليه تلك الأيام طويلة؟ حيث كان يخرج إلى الطريق يرتقب كل القادمين لعلها تكون بينهم، ثم يعود متعباً مرهقاً غير راغب في الطعام، حتى أنه لم يحلق ذقنه فترة غيابها حتى امتلأت كل جنبات وجهه الزاهي بالشعر الكثيف فكانت أمه تناديه: يا أبا شعر.

وكم كانت فرحته عندما دخلت عليه فجأة وهو يسجل واردات التموين فلم يتمالك، وكاد يسكب برميل الزيت في الحجرة مندفعًا نحوها ليخبرها كم اشتاق إليها!. إن قلبه أصبح معطراً بعطر العشق، ودبت فيه حرارة الهوى منذ أن رآها، ولكنه رغم ذلك يعلم الحقيقة. والحقيقة أنه فقير وغريب، لا أحد

يعرف عن أهله شيئاً. فمن سيرضى أن يزوجه ابنته؟!. لم يكن يحكي عن قمر إلا لأمه، فهي الوحيدة التي يمكنها صيانة سره. وهي الوحيدة التي لن تعيّره بأهله المجهولين. تبتسم وهي ترى في عينيه بريق العشاق وهو يتحدث عن قمر، والعمل مع فايز البقّال. يطلب منها في عطف أن تخبره عن أهله، وأين ذهب أبوه؟ فتقول: لم يحن الوقت بعد!!

يتطور الحوار الباسم إلى ما يشبه العراك يسأل، ويصرخ، ثم يسأل ويصرخ، ثم يلقي بنفسه في حجرها تسبقه دموعه الحارة، وتحاول الأم أن تتماسك لكن همومها تتجمع أمام عينيها، وأحزانها تتراكم في قلبها؛ فتبكي هي الأخرى، وينام في حجرها، ثم يقوم مفزوعاً على نفس الكلمات: "إنه القمر، إنه القمر". ما زال الحلم القديم يلازمه.

كانت مصانع السكر في قفط قد طلبت عمالاً موسميين براتب خمسة عشر جنيهاً في الأسبوع، فعرض ناصر وصابر على محمود الذهاب معهما، وتعهدا لأمه أن يكون في حمايتهما. فهذه الأجرة تضمن لهما دخلاً معقولاً، والعمل في المصنع لمدة ثلاثة أشهر فقط موسم جمع القصب. وافق محمود على مضض فهو لا يرغب في فراق قمره، ووافقت الأم بسبب الحاجة إلى المال، ورغبة في إبعاده عن حبه لقمر. فما يعطيه البقّال له لا يكفي نفقاتهما، وتخشى عليه من ألم الفراق إن تزوجت محبوبته وهو أمر مؤكد حدوثه، أو إذا عرف البقال ما بينه وبين ابنته فربما يؤذيه!!.

انتقل محمود إلى قفط، وبقيت الأم في وحدتها تخشى عليه، وتشعر بغربة كبيرة منذ أن ذهب. يجتمع حزنها عليها ليلاً بمجرد خروج أم جابر، فتقضي

الليل في البكاء على الزوج الغائب منذ زمن، والأهل الذين فقدتهم منذ سنوات، وشوقاً إلى محمود. كم هي طويلة ليالي الفراق!!

شاهد عباس قمر في إحدى زياراته للنجع، وبهرته تلك الصورة الجميلة لهذه الصبية المكتملة الأنوثة، والتي يفوق جمالها وحسنها الوصف، فقرر أن يطلبها من أبيها رغم أنه أكبر منها بعدة أضعاف عمرها القصير. كانت مكانة عباس وسطوته وماله أهم المغريات التي دفعت الأب أن يوافق على زواجها منه، رغم أنه يعلم مقدمات ونهايات مثل هذه الزيجات، ولكنه علل ذلك بالأموال التي سترثها إن مات عباس، فلا أهل له، ولا ولد، ولا أقارب؛ فستعود كل تلك الأموال إليهم. تم الزواج في سرعة كبيرة، فلم تُبدْ العروس كثيراً من الاعتراض خاصة أن الحبيب الغائب قد انقطعت أخباره، وهي تعلم أن ظروفه لن تنصفه.

ومنذ اليوم الأول للزواج وقمر تعاني من قسوة هذا الكهل المتغطرس، فهو دائم السباب للعمال والفلاحين، طامع في كل ما حوله، لا يريد لأحد أن يمتلك شيئاً بالمرة. يخاطبها بغلظة، ويهزأ من والدها البقّال ومن كل أهلها في نجع العكارمة..

عاد محمود من مصنع السكر، ومكث أياماً في منزله يعاني من الضيق والحزن كلما تذكر نظرات قمر الحانية وهو يعلمها حروف الهجاء وأعداد الحساب، وعينيها الواسعتين اللتين يرتسم فيهما جمال الحياة، وهذا الصوت الناعم الخلاب، ولكنه علل الأمر لنفسه بأنه لم يكن بمقدوره تغيير ما كان، وأن كل قصص العشق لا تنتهي بما يتمناه العاشقون.

مرت تلك الأيام عليه طويلة، فلا سبيل أمامه إلا النسيان. بينما بدأت حاجته للمال تزداد؛ فقد انفق كل ما جمعه في الشهور الثلاث السابقة، كما أنه لم يجد عملاً في النجع، فهو لا يجيد أعمال الزراعة، وفايز البقّال استعان بأحد أقاربه لحساباته. فماذا يفعل؟! وقد تراكمت الديون، وكلما همّ بالسفر مع بقية الشباب نحو القاهرة ترفض أمه، وتتذرع بخوفها عليه، وأنها لا تتحمل غيابه، وليست على استعداد لفقده كما فقدت أباه. فالله وحده يعلم كم عانت في غيبته في قفط القريبة منهم!.

باعت متاع البيت القليل حتى لا يفكر في السفر نحو الشمال، وأقسمت إن فكر في السفر؛ فسوف تلقي بنفسها أمام القطار الذي سيركبه. وككل الشباب مازال الحلم القاهري، تلك المدينة الخيالية التي لا تنام، ولا ينقطع ضوئها ولا ضجيجها يراوده كما يراود كل أبناء الجنوب الراغبين في الفرار من الفقر والحاجة والإهمال. كل متاع البيت لا يكفي سوى شراء طعام يوم أو يومين؛ فاقبل الجوع مشمراً في ظل انعدام مصدر الدخل، وإصرار الأم على عدم رحيله.

كاد الجوع أن يعصف بهما، ولم يجدا شيئاً في المنزل يمكن أن يباع، فلم يبق أي شيء. وكانت تلك الكلمات التي سمعها من سيدتين تتحدثان عنه وعن أمه أنهما بلا أصل وبلا فصل قد أذهبت النوم من عينه، وأشعرته بعجزة ووحدته حيث لا أب، ولا أخ، ولا عم، ولا خال، ولا قريب. فهو لا يعرف عن أهله شيئاً، فأيقظ أمه التي كانت متناومة تحاول طرد جوعها، وسألها:

- من أين جئت أنت وأبي؟

رفضت الإجابة، وتجمعت كل أحزان العالم في عينيها اللتين غمرتهما سحب الدموع؛ وحجبت الكلام، فخرج متقطعاً خلف نبرات الأسى والشعور باللوعة على الزوج الغائب منذ زمن، ولا تعلم أين ذهب؟!، ربما قتله أحد أبناء العطار، ربما قُبض عليه وأُدخل السجن؛ وتخاف على ابنها الوحيد من لعنة الثأر؛ مما أجبرها على أن تقول له:

- ماذا يَهم في معرفة من أين جئنا؟! أما بالنسبة لأبيك فقد سبق وأخبرتك: أبوك مات، وأنت في الثانية من عمرك.

الطفل الذي كان يصدق هذا الكلام من قبل لم يعد طفلاً، لقد أصبح شاباً يسأل:

- مَن يكون أبي؟ وأين هو؟ وإذا كان قد مات فأين قبره؟، وهل يوجد ميت بلا قبر؟! ثم أين عائلتي وعائلة أبي؟ هل نبتُ هكذا كالنبت الشيطاني بلا جذور؟ أم أنا كما سمعت من هؤلاء النسوة بلا أصل ولا فصل؟!

تخشى الأم أن تبوح لابنها بالسر الذي تخفيه؛ فتنهمر دموعها. فكلام الابن رصاصات تُقطّع كبدها، وتمزق روحها، وهو لا يرحمها. يصرخ، ويسأل ويصرخ ، ثم يسأل ويصرخ حتى يلقي بنفسه على حجرها، ويبكي بكاءً حارًا، وينام مضطرباً. تسمعه يهذي: "إنه القمر، إنه القمر". يستيقظ مفزوعاً...إنه نفس الحلم الذي يلازمه.

مازال الليل في أوله والجوع لا يترك النائمين لنومهم بل يسحبه من عيونهم. ضاق الفتى ذرعًا بما هما فيه؛ فقرر أن يبحث عن الطعام في أي مكان حتى

لو اضطر إلى سرقته. لا يجد سلاحاً يحمله سوى منجل كان يقطع به أعواد الشجر؛ ليغطي سطح المنزل المتداعي منذ الصباح. وفي هذا الليلة التي نشر قمرها نوره على كل الموجودات اتجه جنوباً، ومازالت حالة الخوف تنتابه من رؤية القمر المكتمل. الحقول خاوية فليس بها سوى بقايا أعواد القمح وبعض الحشائش. ما زال يقطع الأرض حتى اقترب من نجع البارود، وعندما رفع بصره وجد كومة من القمح تلمع مع ضوء القمر (والجائع يحلم بسوق الخبز) وتتوسط جرن كبير يُطل عليه منزل واسع من طابقين، فاقترب منها شيئاً فشيئاً. لقد قرر أن يسرق بعض الحفنات من هذا القمح الوفير، ويعود بها إلى أمه لتطفأ جذوة جوعها وجوعه، وعندما اقترب من الجرن وجد صاحبه أو ربما حارسه متكئًا بجوار كومة الغلال وقد أشعل سيجارته؛ فاختبأ خلف جذع شجرة عريض بالقرب من الرجل، ولمح فتاة مقبلة نحو كومة القمح. إنها قمر، ماذا جاء بها إلى هنا؟! إذن هذا منزل زوجها الثري!!. وبعد فترة عادت إلى داخل المنزل الكبير.

.....

أشرقت الشمس، وملأت الكون بضوئها، وخرجت قمر من المنزل متجهة حيث كان ينام زوجها بجوار جرن القمح، وصعقت مما رأت فقد وجدته مذبوحًا وبجواره منجل حاد، وأحد أصابع يده اليمنى التي كان يلبس به خاتماً ذهبياً مقطوعاً؛ صرخت صرخة مدوية أقبل على أثرها كل الجيران والفلاحين المتواجدين في حقولهم. واستدعيت الشرطة، وحضرت النيابة التي عاينت المكان لا شيء مفقود، ولا أثر للمقاومة من عباس بل إن طبنجته تحت

مخدته لم يلمسها أحد. شاع الخبر في أرجاء نجع البارود ونجع العكارمة عن مقتل هذا الثري الغريب زوج قمر بنت فايز السلمي.

وانشغل رجال الشرطة في مركز قفط بالبحث عن مفتاح لهذه القضية التي شغلت كل الجهات المعنية في محافظة قنا، فقد كانت سابقة غير معتادة أن يكون القتل بلا سبب واضح. فالقتيل ليس له عداوات ظاهرة، وليس من المطلوبين في ثأر، كما لا توجد أثار لسرقة أي شيء من بيته أو جرنه، ويكون القتل بهذه الطريقة الوحشية الذبح بمنجل مع قطع إصبع القتيل، كُلفت المباحث بالأمر، وظل المخبرون يتنقلون من قرية إلى قرية ومن نجع إلى نجع، ونشروا العديد من المخبرين السريين، وكلفوا الخفر بتفتيش بيوت من يشكون بهم أو أصحاب السلوك المشبوه.

وبينما كان البحث مستمراً والقلق والحيرة على وجه شيخ الخفر الذي ظل يتنقل في شوارع النجع ذهاباً وإياباً، جلس محمود أمام منزله، وأوقد النار، ووضع قِدراً كبيراً ملئه بالشاي ، وأخذ يدعو كل المارين على الطريق إلى احتساء الشاي، وأن يقرؤوا الفاتحة على روح أبيه، وجلس بعض الرجال والشباب يشربون الشاي في عجب مما يفعله، مر شيخ الخفر فدعاه للشاي فلم يرد، وأظهر اهتمامه بالبحث عن قاتل عباس مرزوق أكبر أعيان نجع البارود، فدعاه محمود مرة أخرى :

- تفضل يا شيخ الخفر، اشرب معنا كوبًا من الشاي، لعلنا ندلك على الخاتم الذي تبحث عنه.

تسمر شيخ الخفر مكانه، ونظر إلى محمود في دهشة؛ فلم يكن أحد يعرف أن القتيل قُطع إصبعه الذي يحمل خاتماً ذهبياً. تقدم نحو محمود الذي سار أمامه حتى دخلا المنزل وسط حالة من الذهول التي انتابت الجميع الأم، وجارتها أم جابر ، وهذا الجمع الجالسون أمام المنزل.

اندفع محمود نحو إحدى الغرف، وعاد ممسكاً بكيس بلاستيكي به الإصبع المقطوع، وما زال خاتمه ملتصقاً به. لم يحاول محمود المقاومة أو التبرير بل سار مع شيخ الخفر في صمت. تودعه صرخات الأم ودموعها المنثورة على وجهها الذي كهّله الزمن بما لطمها به من مصائب، وفي محضر الشرطة اعترف بقتله لعباس وقطع إصبعه، واثبت الضابط شهادة شيخ الخفر: أنه وجد إصبع القتيل في بيته وأنه هو من دلّهم عليها، وأقفل المحضر، وأرسل محمود إلى نيابة قنا في مساء ذلك اليوم.

وفي مقر نيابة قنا وقف الشاب مقيداً بالحديد في انتظار وكيل النيابة الذي تم استدعاءه من بيته في هذا الوقت المتأخر من النهار، فقد اهتمت كل الدوائر في قنا بمقتل هذا الثري المعروف في نجع البارود. لم يتكلم بكلمة واحدة أمام وكيل النيابة ولم تُجد محاولات التهديد والوعيد. وظل صامتاً رغم أن وكيل النيابة أخبره أنه لا فائدة من صمته، بل ربما يُضار منه. فقد اعترف بالقتل في محضر الشرطة!، ولكن الفتى لم تتحرك شفتاه بكلمة واحدة، وعندما همّ بالكلام قال:

- أريد أن تكون محاكمتي في المنطقة الرملية الموجودة بين نجعنا ونجع البارود، وأن تكون ليلاً عندما يكتمل القمر.

كانت كلماته بمثابة الهذيان بالنسبة لممثل الادعاء الذي أدهشه هذا الطلب، فمنذ متى والمتهم يحدد مكان المحاكمة؟! ولماذا هذا المكان؟، وهذا الوقت بالتحديد؟!! ولم يكن أمامه إلا أن يثبت طلب المتهم في هذا المحضر الذي تم تحريره في وقته وتاريخه.

كان طلب المتهم مثار سخرية الموجودين في المحكمة، حتى المحامي الذي استقدمته أم القاتل أصابته نفس الدهشة، وقال مخاطبًا إياها:

- ربما أطلب تحويله إلى مستشفى الأمراض العقلية.

لم يكن أحد على دراية بسبب طلب محمود لهذا الطلب الغريب. فحاولت أمه أن تعرف منه، ولكنه ظل على صمته. هذه اللوعة والحسرة التي أحست بها الأم الملكومة منذ سنوات على زوجها الغائب، وها هي تجد ابنها الوحيد على بعد خطوات من حبل المشنقة متهماً في قضية قتل مع التمثيل بجثة القتيل، فبين عشية وضحاها أصبحت فاقدة لكل سند يمكن أن تستند عليه في الحياة، وأصبحت محل ريبة كل جيرانها الذين ما زالوا يوقظون جراحها بالسؤال عن أهلها وأهل زوجها وعن زوجها المختفي منذ سنوات، وزادت أيامها سواداً بتلك الجريمة التي ارتكبها الابن. ولكن لا حيلة لها إلا الصبر الذي تمسكت بحباله، وحاولت أن تتجاهل تلك العيون الوقحة التي ترميها بكل سوء.

ومع بيان النيابة في خطابها إلى المحكمة أن المتهم مُصرّ على طلباته، وربما لن يتكلم طالما لم تنفذ. خطّ ممثل النيابة في أخر المحضر بخط رفيع: أنا

متضامن مع طلبات المُتهم. وكانت تلك من غرائب المحاكم أن يتضامن ممثل الادعاء مع المتهم.

وصلت أوراق القضية إلى أحد القضاة القادمين من أسيوط في بداية عام قضائي جديد، وكان مكلفاً بالتحقيق والحكم في قضايا الجنايات في محكمة قنا، فاندهش لما رآه في أوراق أول قضية تعرض عليه. فالمتهم معترف في محضر الشرطة المثبت فيه شهادة شيخ الخفر، ووجدت إصبع القتيل التي تحتوي على خاتمه الذهبي في بيته، فلم الإصرار على هذا الطلب الغريب والعجيب؟! دفعه فضوله وحبه للحق والعدل إلى زيارة هذا الشاب المتهم في سجنه، وخالف كل القوانين واللوائح التي تمنع ذلك، فوجد الشاب مصراً على طلباته، وإذا لم يتم تنفيذها فلن ينطق بكلمة واحدة، وسيرضى بأي حكم يحكم به، ولكن ذنبه سيظل في رقبة القاضي.

شعر القاضي بقشعريرة غريبة، وأن هناك سراً كبيراً ربما لا يتم الإفصاح عنه إلا بالموافقة على هذا الطلب؛ فأمسك بالورق والقلم وكتب خطاباً إلى المحكمة العليا، وأرفق به تضامن النيابة مع طلب المتهم، ورجاء أن يستجاب له. واستدل بواقعة مشابهة أيام الانجليز - وهم أغراب- فقد أقاموا محكمة أبناء (دنشواي) في مدخل قريتهم، ونفذوا الحكم علنًا أيضًا. فلم لا يستجاب لطلب المتهم والقضاة مصريون والمتهم واحد من أبناء هذا الوطن؟!، وربما تكون سابقة يذكرها التاريخ، وتكون إشارة مضيئة إلى أن هذا القضاء هو ابن الوطن، وليس معيناً للسلطة. وفي اجتماع المحكمة العليا اقتنع الحضور بوجهة نظر القاضي الشاب الذي تجرأ على هذا الطلب، وأيده بالإقناع.

وفي وقت قصير أُخطرت مديرية أمن قنا بالأمر، واستدعت القوات من كل الأرجاء للإعداد لهذه المحاكمة العلنية التي ستقام في مكان رملي مكشوف بين القرى، وفي الليل وقت أن يكون القمر بدراً.

وفي اليوم المحدد اجتمع خلق كثيرون، واستدعيت الصحف للاطلاع على هذا الحدث النادر. وبناء على طلب المتهم تم استدعاء كل أهالي نجع العكارمة ونجع البارود، ومن يستطيع الحضور من أهالي مركز قفط؛ ليحضروا المحاكمة. وفي المحكمة جلس القاضي على منصته بالقرب من تلك النخلة المشرفة على هذا الفضاء الرملي المرتفع بين النجعين، بينما أضيئ المكان بالمشاعل والمصابيح بالإضافة إلى نور القمر الزاهي في السماء.

وقف محمود في قفص الاتهام، بينما رُفع علم الجمهورية ذو النجمتين شامخاً يشهد على احترام الدولة لإرادة الشعب!!. وأحاطت القوات بكل الموجودين، وصنعت حاجزاً بين أبناء النجعين الذين وقفوا متلهفين لمعرفة تفاصيل مقتل هذا الثري الغريب الذي اختلفت أراء الناس حول طبيعة شخصيته، فمنهم من اكتوى بناره ومنهم من استفاد من وراءه، ولكنهم اتفقوا على كراهيته.

وفي مكان قريب من القاضي وقفت قمر زوجة القتيل بجوارها والدها وإخوتها، بينما أقبلت رابحة متشحة بالسواد تدافع الحاضرين؛ لتتمكن من رؤية أبنها المتهم، ولكن الجمع الغفير حال بينها وبين ذلك، فأمسك بيدها الشيخ حسن مأذون نجع العكارمة، وقربها من المكان الذي تقف فيه قمر.

كانت نظراتها التي لمعت مع ضوء القمر والمصابيح إلى قمر تحمل الشك والاتهام، فربما كانت هي سبب هذه المأساة التي تعيشها، فربما كان دافع القتل حب ولدها الوحيد لها، وربما واعدته سراً، وعندما اكتشف زوجها الأمر اضطر ابنها أن يقتله.. لقد كانت كل الظنون تدور بخاطرها، ولكنها لم تكن متأكدة من أي منها، فما زالت مثل الآخرين لا تعرف شيئا عما حدث، وعما يحدث سوى تلك اللحظة التي دخل عليها ابنها، وهو يحمل إصبع بشرية بها خاتم ذهبي، وقال في صوت حزين فيما يشبه الهذيان:

- اليوم مات أبي، أنا الآن متأكد، وأعرف اسمه، وأعرف قبره يا (صباح)!!

وبعدها لم ينطق بكلمة. رنت كلمة صباح في إذنها كالرعد المدوي. فمن أخبره بذلك؟!.

ومع ارتفاع الصيحات والأصوات صرخ أحد الضباط في الجميع:

- سكوت.. الكل يلزم الصمت؛

فحل السكون، ووقف الحاجب ممسكاً بدفتره، وقال بصوت جهوري مفتعل:

- محكمة..

وقف الجميع، فأشار إليهم القاضي بالجلوس. أخرج الحاجب من أوراقه واحدة مطوية فضها بكلتا يديه، ونادى على القضية:

- المتهم محمود عبد المنعم محمد أبو دسوقي متهم في القضية رقم واحد لسنة (وذكر السنة) جنايات قنا في قتل عباس مرزوق مع سبق الإصرار.

هنا رفع محمود يده وقال في ثقة، وهو يتجه بنظراته نحو أمه، وقد بدأت الدموع تملئ عينيه:

- اسمي ليس كما ذكر الحاجب. فأنا محمود خليل عبد الواحد، والقتيل هو عباس الأحمر سفاح مركز الواسطى في شمال الصعيد..

تجمدت العيون والألسنة وظنه الجميع يهذي، وكانت دهشة الأم ممزوجة بالفرح والدموع، لا تدري لماذا؟ ربما لأنه ذكّرها بتلك الأيام الخالية التي نعمت فيها بالقرب من أبيه وهو يحمل اسمه الحقيقي. أو ربما لأنه أزاح عنها عبء إخباره بكامل الحقيقة التي تيقنت أنه على مقربة منها. ولكن كيف عرف ابنها ذلك؟! وما علاقة ذلك القتيل وقمر بهذا الأمر. قطع صوت القاضي كل حبال تفكيرها، وهو يخاطب المتهم:

- لا تتكلم إلا بإذن.

تكلم ممثل الادعاء بما لديه من اعتراف للمتهم بالقتل العمد، وعلل القتل بنية المتهم في سرقة بعض ممتلكات القتيل، وعندما هم بالإمساك به ذبحه بغير رحمة، وقطع أصبعه التي تحمل خاتمًا ذهبياً بمنجله الذي ألقاه في مكان الجريمة، ووجدت بصماته عليه.

نظر القاضي الى المتهم وقال:

- هل أنت معترف بالقتل، كما قال ممثل الادعاء؟!.
- نعم.

أخرج القاضي منجلاً ملطخاً بدمّ جاف، ونظر إليه، وقال :

- هذا المنجل يخصك؟
- نعم
- هل اقتربت من منزل القتيل بدافع السرقة ؟
- نعم.
- هل قطعت أصبع القتيل البنصر؟
- نعم.

علت الأصوات من جانب أهالي نجع البارود، ونادوا بصوت متزامن:

- أعدِموه!..

دق القاضي بمطرقته دقتين، وصاح:

- اصمتوا. وهنا ابتسم القاضي المرح، وتذكر العبارة الشهيرة: "اصمتوا وإلا سأخلي القاعة"، وقال في نفسه: نحن في الخلاء، ولا توجد قاعة يمكن إخلائها، وتوجه بكلامه للمتهم مرة أخرى:

- إذن أنت معترف بقتل عباس مرزوق مع سبق الإصرار، والتمثيل بجثة القتيل مع وجود النية المسبقة للسرقة! هل تعرف أن هذه الجرائم عقوبتها الإعدام؟

- نعم. ولكني أطلب شهادة زوجة القتيل!

حاول المحامي أن يُحل الجنيهات الخمسة التي أعطتهم له أم المتهم؛ فقال:

- الدفاع يطلب تحويل المتهم لمستشفى الأمراض العقلية، للتعرف على مدى سلامة قواه. فموكلي مجنون.

وحاول ممثل النيابة أن يثني القاضي عن تنفيذ هذا الطلب بحجة أن المتهم معترف وكل الشواهد ضده.

أمر القاضي بالنداء عليها في التو، فنادى الحاجب على زوجة القتيل.

وبعد القسم المعتاد، سألها القاضي:

ماذا تعرفين عن هذه الجريمة؟!

قالت بصوت مرتجف ممزوج بدموع حاولت إخفائها:

- لقد تركت زوجي نائمًا بجوار كومة الغلال القابعة في الجرن أمام منزلنا الكبير، وعندما استيقظت في الصباح، وجدته مذبوحًا، وبجواره منجل ملطخ بالدم، وأحد أصابع كفه اليمنى الذي تختم بخاتم من ذهب مقطوع.

- هل تعرفين هذا القاتل؟

- نعم.
- هل رأيت أحدا حول الجرن أو المنزل ليلة الحادث؟
- لا.
- هل حاول أحد الأغراب دخول المنزل ليلة الحادث؟
- لا.
- هل سمعتي أصوات استغاثة أو أصوات اقتتال وعراك؟
- لا.

هنا طلب محمود الكلام، وتوجه إلى قمر بالحديث:

- كل رجائي يا قمر، في هذه اللحظة، والقمر شاهد عليك أن تحكي لسيادة القاضي وللحاضرين ما حكاه لك زوجك في تلك الليلة.

نظرت قمر تجاه والدها و تجاه أم محمود بارتباك، وقالت:

- سيدي القاضي، في تلك الليلة كنت أجلس بجوار زوجي عباس حيث كان مستلقياً ناظراً للسماء، كانت الليلة التي اكتمل فيها القمر، وكنا على خلاف في منذ مطلع الليلة كعادتنا، وسمعته يضحك بصوت عال؛ فأصابتني دهشة وغيظ من هذه الضحكات الساخرة؛ فقلت في نفسي:
- ربما يضحك سخرية مني، فطالما سخر مني ومن أهلي، فنظرتُ إليه في ضجر، وسألته:

- لم تضحك؟! هل سمعتني أخرج صوتاً من بطني؟!

فاعتدل في جلسته، وسألني:

- ترى يا قمر، هل يمكن أن ينزل هذا القمر؛ ليكون شاهداً في محكمة ؟!

فأجبت:

- ربما!، إذا كان الحشيش الذي تتعاطاه قد لعب برأسك، فسأدخل لأنام!.
- انتظري، سأحكي لكي حكاية ذكرني بها القمر في تمامه هذا، منذ ما يقارب عشرين سنة كان لي صديق يقيم في نجع العكارمة اسمه عبد المنعم، وله ابن اسمه محمود، وكان غريبًا جاء من الشمال وسكن النجع...

سبحت قمر في أفكارها قليلاً، لقد ذكّرها بمحمود وحبها له؛ فخشيت أن يكون الحديث عن قصتها معه، ولكنها لم تُبد اهتماماً، فلا أحد يعرف شيئاً عن حبهما.. وأطرقت تستمع إليه وهو يحكي:

- في عام اشتد فيه الأمر على الناس فقراً واحتياجاً، فقد جرف السيل المزروعات والممتلكات، وجئت أبحث عن الذهب، فخرجت أنا وعبد المنعم للسرقة، وحددنا وجهتنا سرقة القصر الذي يملكه الخواجة صاحب الشركة التي تنقب عن الذهب في المنجم بالجبل الشرقي، وكنا قد رصدنا كل المتواجدين في القصر، وقررنا السطو عليه بعد التخلص من

الحراس، ولما ذهبنا إليه كانت المفاجأة! فلم نجد أحداً بداخله. فلا حراس، ولا حتى صاحب القصر الخواجة؛ ففتحنا خزانته، واستولينا على ما بها من مال وذهب، وجمعنا كل ما يمكننا حمله، وعدنا في سلام في ليلة مقمرة كهذه. وعندما اقتربنا من النجع جلسنا بجوار نخلة تشرف على منطقة رملية بين نجعنا ونجع العكارمة؛ لنستريح ونقتسم تلك الثروة. فلم نعد في حاجة إلى السرقة أو العمل مرة أخرى، وأخرج صاحبي براد الشاي، وهمّ يوقد النار فقد كانت ليلة شديدة البرودة، بينما انشغلت في إشعال سيجارتي. وأنا أقلب في قطع الذهب دارت برأسي فكرة قتل صاحبي والاستيلاء على الذهب وحدي، وعندما صب صديقي لي الشاي نظرت إليه، وقلت:

- أليس الوقت قد حان حتى تخبرني من أنت؟ وما اسمك الحقيقي؟! فربما لا نلتقي مرة أخرى!. فنظر في تبسم، وقال :

- أما زلت مصمماً على معرفته؟!، اسمي خليل عبد الواحد من مركز الواسطى، وأنا صهر التاجر محمود الجمّال تاجر الأقطان بشارع سعد زغلول. وابنته صباح التي تقيم معي الآن، وابني محمود طفل رضيع. وقد قتلت ربيع العطار صاحب العطارة في شارع الجزارين في مشاجرة، وساقتني خطوات القدر إلى هنا هرباً من الحكومة ومن الثأر؛ لأتعرف عليك، ونسرق سوياً. قالها، وهو يضحك؛ فضحكت، وقلت:

- ربما يكون من المهم أن تعرف مَن يكون صديقك أيضا؟! أنا عباس الأحمر، وهنا سرح قليلاً، ثم تسمر في مكانه، وبرقت عيناه، وأصابه الفزع، وقال في صوت متهدج:

- عباس الأحمر سفاح مركز الواسطى؟! فأجبت: نعم!

شعرت بارتباكه وهلعه؛ فنظرت إليه وإلى الكنز الموجود بيننا، فقال في خوف:

- فيما تفكر يا عباس؟!

فقلت:

- ترى لو قتلتك الآن، هل سيرانا أحد؟.:

فقال:

- نعم، الله.

فضحكت، وقلت:

- ومن سيشهد عليّ؟!

فقال:

- يشهد عليك هذا القمر.

فأمسكت بخنجري ووضعته في رقبته، وحفرت حفرة على يمين تلك النخلة، ودفنته بها ومعه عصاه وبراد الشاي الذي كان ممتلئاً. وقد ذكرني بكلماته تلك هذا القمر البازغ في السماء الآن.

وعلى الفور أمر القاضي بالحفر على يمين النخلة. وإذا بالبراد المتحلل والخنجر يسكن في عظام جثة بالية بين جمجمتها وقفصها الصدري والعصا بجواره قد تفتت. كانت دموع الحاضرين تزرف أمواجاً على وقع أنات صباح ودموع قمر ومحمود. والقاضي في دهشة ومعه ممثل النيابة ومدير الأمن، وكل الحاضرين من رجال الدولة والصحفيين.

هنا طلب محمود الكلام، وقال في تأثر:

- ليلة الحادث خرجت هائمًا على وجهي بحثاً عن أي طعام ينقذنا من صرخات الجوع المتوالية؛ حملتني تلك الخطى المرتبكة والمترددة إلى هذا الجرن الذي تلمع غلته مع ضوء القمر، وقررت أن أسرق بعض حفنات من الحبوب نقتات بها، ونحتمي من هذا الجوع الطاحن الذي حلّ بنا، وعندما اقتربت من الجرن، وجدت صاحبه يجلس بجواره، وقد أوقد سيجارته؛ فقررت الانتظار حتى ينام، وجلست خائفًا خلف شجرة تشرف عليه، وبينما أنا في حالتي هذه شاهدت قمر مقبلة يلمع وجهها كعادتها تحت ضوء القمر، فعرفت أن هذا الجرن هو لزوجها الثري؛ فاستمعت لما حكاه عباس، وما قصته هي على أسماعكم.

ثارت نوازع الانتقام بداخلي من هذا الرجل السفاح الذي أذاقني مرارة اليتم والحاجة، وحرمني من أبي، ورمّل أمي الغريبة في بلاد غريبة، وحرم بفعلته والدي من أن يرى نبتته تشتد أمامه، وغدر به في لحظات، بعدما استأمنه على سره. فقررت أن أعامله بالمثل، وفكرت في قتله والرحيل بدون أن يعلم أحد، ولكني تذكرت كلمات أبي التي كانت أخر ما نطق به في الدنيا: "سيشهد عليك هذا القمر"؛ فقررت أن أقتله

بمنجلي، وليتني كنت أملك خنجراً لأضعه في رقبته، وقطعت إصبعه ليكون دليل إدانتي، واخترت هذا الوقت؛ عند اكتمال القمر ليكون شاهدي، والمكان حيث يرقد أبي، واجتماع الناس ليعتبروا ولا يأتمنوا مجرماً، وليعلموا أن شيطانه وملائكتهم لا يمكن أن يجتمعوا في مكان واحد، وتكون نهاية عباس عبرة لكل مُجرم يظنُ أنه سيفلت بجريمته.

تداخلت الأصوات بين التصفيق والتكبير، وانطلقت (زغرودة) الثأر من فم أم جابر؛ فقد أخذ محمود بثأر أبيه، وتعالت الأصوات: أفرجوا عنه.

الحاجب منادياً بصوت جهوري مفتعل:

- محكمة.

دق القاضي دقتين، وقال في صوت مبتهج:

- بسم الله الرحمن الرحيم..

بعد الاطلاع على القانون الأزلي للحق، وتنفيذا لأمر الله بالحكم بين الناس بالعدل.

فقد حكمت المحكمة حضوريًا على المتهم محمود خليل عبد الواحد بـــــــــــــــــــــــــ..

....

رُفعت الجلسة.

نادى الحاجب :

- رفعت الجلسة..

...انتهى الحلم